المساكين

فيودور دوستويفسكي

- المؤلف: فيودور دوستويفسكي
- العنوان: المساكين
- ترجمة: صوفي عبد الله
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

- Author : Fyodor Dostoevsky
- Title: Poor Folk
- Translated by: Sofi Abd-Allah
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashir
- General Manager: Mostafa Alsheikh

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ٨٩٦٤
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 164 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

فيودور دوستويفسكي

المساكين

رواية

ترجمة

صوفي عبد الله

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

دوستويڤسكي، فيودور.

فيودور دوستويڤسكي : المساكين - ترجمة: صوفي عبد الله

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

200 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 8964 / 2018

الترقيم الدولي 6 - 164 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - دوستويڤسكي، فيودور

هذه ترجمة رواية :

Poor Folk
By
Fyodor Dostoevsky

مقدمة المترجمة

قارئًا ما قرأ الإنسان في قصص المشرق والمغرب، في القديم والحديث. وأيًّا ما كان رأيه في مراتب الفنون وفي مكان القصة من دولة الأدب الرفيع، فإن نتاج عبقرية «فيودور دوستويڤسكي» من القصص، ومن القَصص الطويل على وجه الخصوص، سيبقى إلى آخر الزمان ذخرًا من أثمن ما تعتد به الآداب العالمية على إطلاقها:

منزل الأموات،

الجريمة والعقاب،

الإخوة كرامازوف.

قليلٌ من كثيرٍ عرفه العالم لقلم ذلك الكاتب الروسي النابغة، الذي سما بأدب القصة إلى أفقٍ يساوي عظمة شكسبير الخالقة في دنيا الشِّعر.

فإذا قيل دوستويڤسكي، قيل فخر الإنسانية وذخرها جمعاء، ولا يأتي ذكر وطنه روسيا إلا بعد ذلك النسب العام. ولكن الرجل عبقرية روسية بقدر ما فيه من عبقرية إنسانية شاملة؛ لأن عناصر

تكوين أمته مكتملة فيه كل الاكتمال، وفي شخوص رواياته صورة صادقة لذلك الشعب بتوفزه العصبي وتحفزه وعمق انفعالاته واجتماع النقائص في طبيعته الحية.

فيصدق في وصف كاتبنا أنه أعظم كُتَّاب القصة الطويلة في آداب العالم المعروفة غير مُنَازَع.. كما يصدق في وصفه أنه قمةٌ شامخةٌ بين أسمق القمم الشوامخ التي تنازعت التبريز والتفوق في وطنه وفي زمنه.

وناهيك ببلد اجتمع له من أبنائه في جيل واحد أمثال دوستويڤسكي وتولستوي وتورجنيف وتشيخوف وجوجول وجوركي وأوبلوموف... وهي نخبة كريمة، يكفي واحد منها لاعتزاز أمة بأسرها في أمد طويل، فكيف وقد اجتمعت لأمة واحدة، وفي جيل واحد؟

إنه إذَنْ ثوران البركان، أو تحول محور الأرض عن مكانه المكين في آفاق الفضاء، أو ما هو لاحق بذلك من ظواهر الطبيعة التي ترجع أسبابها إلى مجهولات عميقة محجبة بالغوامض والأسرار، وتؤذن عواقبها بتغير حاسم في معالم الحياة.

فظهور هذه الشموس في سماء روسيا كان خارقة من تلك الخوارق، ولا مراء، فكأنهم جِنّيّ الخرافة الذي أطلقه الصياد من القمقم، فلم تفلح في رده إليه الرُّقى والتعاويذ.

أما القمقم فكان «الجهل» وأما القفل الذي كان يختم عليه أجيالًا بعد أجيال فهو «الرجعية»، وأما الجنّيّ فهو «حرية الفكر والضمير»، وأما الصياد الذي فتح القمقم في غير تدبر لما في داخله، فهو مؤسس روسيا الحديثة، «القيصر بطرس الأكبر».

فقد افتتن هذا القيصر بحضارة الغرب، فذهب يدفع بلاده إلى تقليده دفعًا عنيفًا. وكانت روسيا إلى عهده أمة مستعصمة ببداوتها، فبعث «بطرس» البعوث إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وحث الناس على اتخاذ السمت الأوروبي في المأكل والملبس وآداب الاجتماع.. وأخذ الناس بالرطانة الفرنسية والاطلاع على آدابها الحسان. فكأن ذلك القيصر القديم هو الأصل الذي أخذ عنه «مصطفى كمال أتاتورك» في هذا الزمان، لولا أن الطفرة التي أراد بطرس قومه عليها كانت أكبر وأعنف من تلك التي راض عليها أتاتورك أبناء بلده المحدثين.

والناس -مذ كانوا- أعداء ما جهلوا... فكل طفرة من شأنها أن تجد فيهم مقاومة حاضرة، ولو كانت إلى الخير والرخاء.. فما إن مات بطرس، حتى سعت عناصر الرجعية إلى الاستيلاء على زمام الأمور.

ولكن هيهات!! فإن النهر لا يتجه القهقرى من المصب إلى المنبع أبدًا، يصدق ذلك في طبائع الاجتماع وعلم تقويم البلدان على السواء، فلم تفلح تدابير الحاكمين من بعد بطرس في رد النور

عن الكهوف الرطبة المظلمة التي كانت تعيش فيها العقلية الروسية منذ قرون، فانتصر النور الجديد، وبقي الجنّيّ مطلق السراح، والأقزام من حوله يقرأون التعاويذ لرده إلى القمقم المكسور.

فما ظنك بعملاق كان حبيسًا في قمقم مظلم، فإذا به يرى الدنيا لأول مرة، ويرى حواسه تلتهم الإحساسات الجديدة طوفانًا بعد طوفان!

إنها النشوة الكبرى! إنه «جنون الحياة» و «حمى الإحساس» تسري في جوارح العملاق الطليق، وفي أعصابه، وقلبه، وتلافيف دماغه الذي تَمَلَّكه الدوَار لكثرة ما يرد عليه من الصور والأحاسيس.. فكانت تلك النخبة الممتازة من «التعبير الفني» الفريد.

كان بوشكين، وكان جوجول، وكان تورجنيف، وكان تشيخوف، وكان تولستوي، وكان دوستويفسكي.

إنه ثوران البركان، أو هو تحول محور الأرض عن مكانه المرسوم في آفاق الفضاء، أو مولد «مجرة» جديدة تهتز لمولدها نواميس التجاذب بين أجرام السماء.

فالعبقرية هي غاية طاقة الخلق التي لا تتفتق إلا في الحين بعد الحين، ينبوعًا خالدًا خارقًا للمعرفة الثاقبة الإحساس النافذة إلى صميم الوجود، حيث تلهو الملايين من البشر بالقشور الأصداف على شاطئه الضحضاح.

* * *

ذلكم هو قبيل دوستويڤسكي من نبلاء النوع الإنساني وأعلامه المبرزين.. فمن هو دوستويڤسكي، ذلك النبيل بين النبلاء والعلم الشامخ بين شوامخ الأعلام؟

إنه أصغر أبناء طبيب من أطباء الريف فظ الطبع، خدن دنٍّ وتبع نساء. سام زوجته سوء العذاب حتى ماتت وابنها «فيدور» في سن السادسة عشرة يطلب العلم في بطرسبرج، توطئة لتخرجه ضابطًا في جيش القيصر.

بيد أن الخدمة في جيش القيصر لم تكن هَمَّ ذلك الفتى المتوسط الطول، العريض الصدر، الأشقر الشعر، الشاحب المحيا، اللامع العينين، وإنما جل همه في قراءة عيون الأدب الغربي، ولا سيما مؤلفات شكسبير، و«أنوريه دي بلزاك» القاص الفرنسي الضحل، الذي يعتبره فيدور أستاذه وإمامه في فن الرواية.

وإذا كان المعهود في ضباط الجيش القيصري أن يحبوا الرقص والشراب وصحبة النساء.. فما كان الضابط فيدور على شاكلتهم في شيء من ذلك، فهو كتوم، منطوٍ على نفسه، نزر الكلام، تشغله القراءة وترجمة آثار بلزاك -ولا سيما «إيجيني جراندیه»- عن ارتياد المراقص والمواخير. فما وافت سنة ١٨٤٤، وقد بلغ الثالثة والعشرين، حتى فُصل من خدمة جلالة القيصر؛ لأنه أبى النقلة إلى الأقاليم، مؤثرًا البقاء في العاصمة بين الكتب والأوراق في سكن متواضع لا يكاد يبرحه ليلًا ولا نهارًا.

وقد اختلف الناس في نسبة العبقرية إلى مسٍّ من جنٍّ يسكنون وادي عبقر. ولكن الذي لا محل للخلاف فيه أن العبقرية شيء خارق.. حري أن يلازمه اختلاف عن النمط السوي أو المألوف في عناصر التكوين.. وبين الاختلاف والاختلال فرق ضئيل إذا كان ثمة فرق على الإطلاق.

وقد تركت العبقرية طابعها ذاك في تكوين فيدور دوستويفسكي، فتركته فريسة سهلة لنوبات من الصرع، شقي بها منذ يفاعته إلى ختام حياته في سن الستين.

* * *

فُصِل دوستويفسكي من الجيش في الثالثة والعشرين من عمره، فعكف على الكتابة والاطلاع، فلما كان في الرابعة والعشرين أتم روايته البكر، التي قُدِّر لها أن ترفعه إلى قمة الشهرة والمجد الأدبي دفعة واحدة، حتى أصابه من ذلك دوار شديد.

وهذه الرواية هي التي نضعها اليوم بين يدي قراء العربية:

المساكيــن..

فهي أول ما جادت به عبقرية دوستويفسكي، فنوهت به بعد خمول، وأذاعت ذكره وأعلت قدره عند جمع النقَّاد وجمهرة الأدباء والقرَّاء.

وقد بلغ من تأثيرها أن الناشر، وهو رجل كاتب وأديب متمكن

من الصناعة الأدبية، فاضت دموعه على وجهه مدرارًا وهو يقرأ تلك الصفحات النابضة بالإحساس العاطفي العميق.

وإنه ليندر جدًّا -في جميع ما حفلت به الآداب الإنسانية- أن يجد المرء نظيرًا لقصة «المساكين»؛ فهي -على بساطتها- من الصدق بحيث تلمس القلب فيتحرك لكل كلمة فيها، ويعاني ما عاناه أبطالها «المساكين» من عنت الدهر وقسوة الناس وجبروت القضاء.

إنها قصة كل مسكين في هذه الدنيا، أبت عليه الأيام حق الإنسان المقدس في الحب، وفي الرحمة، وفي الحد الأدنى من العيش الكريم الذي يصون ماء الوجه ودماء القلب.

إنها قصة الحرمان، بكل ما للحرمان من سطوة على مصائر بني الإنسان.

فإذا خانك الدمع أيها القارئ -وسيخونك حتمًا- وأنت تتلوها مستغرقًا في سطورها المتأججة بالشعور الجياش، فلا تخجل من دموعك، وأطلقها؛ لأنها ليست دموع الضعف التي تهدر الرجولة والإنسانية، وإنما هي دموع الإحساس الكريم، والأسى الرحيم، لنفوس حُرمت كل جميل، وهي أهل لكل جميل؛ لأنها فُطرت من النور، وصبت إلى النور، فقُضِيَ عليها أن تتخبط في غياهب الديجور.

إنها أحياء حُرمت حق الحياة.. فما أحراها بدمعك أيها القارئ الكريم.. وما أحراها بقلم دوستويفسكي المبدع وفنه العظيم.

مصر الجديدة

يناير سنة ١٩٥٢

صوفي عبد الله

هو وهي

٨ أبريل

عزيزتي المفداة بربارا ألكسايفنا،

ما كان أسعدني بالأمس يا أختاه! لقد كادت السعادة تقطر من جوانحي، لفرط ما فاضت فيها عذبة رقراقة.. فقد فعلتِها أيتها العنيدة الشموس، ونزلتِ -لأول مرة في حياتكِ- على ما طالما توجهت إليك بطلبه، راجيًا ملتمسًا.

لقد صحوتُ أمس في نحو الثامنة مساء (فأنت تعلمين يا أختاه مبلغ تعلقي بالنوم ساعة أو ساعتين حين أعود من عملي)، فأوقدتُ شمعتي وأعددتُ أوراقي وأقلامي.. ثم رفعتُ رأسي مصادفة، فإذا قلبي يدق في صدري دقًّا عنيفًا متلاحقًا.. لقد فهمت إذَنْ ما كان يجنه قلبي ويتمناه فؤادي المعنى.. فهذي أنتِ قد أزحتِ جانبًا من ستار نافذتك، وثبته في أصيص البلسم القائم في وسطها.. كما أوحيتُ إليكِ ذات مرة في تلميح لم يغب عن فطنتكِ.

بل خُيِّل إليَّ أنني رأيت من وراء زجاج النافذة وجهك الفاتن، وكأنك وأنتِ في حجرتك تنظرين إليَّ، وتفكرين فيَّ. وما كان أشد حسرتي -يا ملاكي- لأنني لم أَكُ مستطيعًا أن أتبين في تلك العتمة، وعلى ذلك المدى، معارف محياك الحبيب إلى قلبي.

لقد كان لي أنا أيضًا بصر حديد يومًا ما يا أختاه، ألا بئست الشيخوخة يا صديقتي الحسناء.. فهأنذا الآن مثلًا وقد بدا لي كل شيء مثنى مثنى، فما أكتب في العشي ساعة وجيزة حتى تهتاج أعصاب بصري، فأصحو في الغداة محمر العينين، وللدمع منهما مسيل لا ينقطع وهميانٌ لا يرقأ، حتى ليركبني الخزي من مرآي حين تقع عليَّ أنظار الناس.

ولكنني رأيت ابتسامتك السماوية يا ملاكي.. بعين وجداني.. رأيتها يا أختاه، فأضاءت بها روحي القابعة في الظلمات، وسرى في فؤادي ذلك الشعور الذي خالجه وجاش فيه يوم قبّلتك يا «ڤارينكا».. أتراك تذكرين ذلك اليوم يا ملاكي؟

أتدرين أنه خُيِّلَ إليَّ أنك كنت تهزين سبابتك الحلوة في وجهي محذرة، من وراء زجاج نافذتك أمس؟ فهل هذا صحيح أيتها الحميقاء؟ لا تكتميني شيئًا من هذه التفصيلات في خطابك يا عزيزتي.

والآن، أما ترين فكرة رفع جانب من الستار كشفًا موفقًا من

كشوف الإلهام؟ فإذا جلست في جوف الليل إلى أوراقي، أو رقدت يقظان في فراشي، وسعني في كل حال أن أعرف أنك تفكرين فيَّ، وأنك ما نسيت صديقك الوامق، وأنك بخير صحة وفي أحسن حال.. حتى إذا أسدلت الستار تمام الإسدال، فهمت عنك أنك تقولين لي بصوتك الباغم:

- عم مساء يا صديقي.. وطاب نومك، فقد آن أوان النوم.

ثم ترفعين الستار مرة أخرى، فكأنك تقولين في بشاشة:

- عم صباحًا يا صديقي.. هل نعمت بنوم هنيء؟ وكيف أصبحت اليوم؟ فأنا بحمد الله بخير وعافية.

أرأيت يا صديقتي كيف صار الكلام بيننا متصلًا بغير حاجة إلى التدوين والتحبير؟ أما تريننى صاحب خيال وأخا حذق وزكانة (فِرَاسة) حين ابتدعت هذا الفن من أدب الرسائل؟

* * *

لقد طاب رقادي ليلة أمس، وما كنت أتوقع أن يطيب.. فإن أول ليلة يقضيها المرء في مسكن جديد خليقة أن تحفل بالأرق والقلق لغياب الألفة وتغير العادة.. ولكني فتحت عيني هذا الصباح ناشط الجسم متفتح النفس، فكأنني باز من الصقور حن للصيد والطراد في أجمة حافلة بالغزلان.. لقد كان صباحنا اليوم رائعًا يا أختاه، فما إن فتحت نافذتي حتى دخلت أشعة الشمس الساطعة، وتدفق في أذني

تغريد الطير، وفغم معاطسي عبير الربيع الطيب النفحات العاطر الأردان.. فكأن الطبيعة قد بُعثت من موات، فهي فرحة نشوى، وكل شيء فيها يشاركها في أفراحها ويسهم في حفل زينتها الفينان!

حتى أنا يا عزيزتي، قد أسهمت في أفراح الربيع، وسرتْ في جسدي الواهن روحه الشابة.. وكان سهمي يا أختاه في أفراح الربيع أنني استسلمت للأحلام، فكنت أنتِ ملء حلمي بالحياة والشباب، والربيع.. فتبديت لي في أحلامي طائرًا جميلًا صغيرًا من طيور السماء.. فما يعرف أبناء الشقاء من أبناء الفناء خلقًا أولى بغبطتهم بين خلق الرحمن، من الطير المغردة بين الأفنان، تحلق وتحط أين شاءت، ولا يكلفها المعاش معاشرة بني الإنسان.

ولكن الأحلام على حلاوتها شيء أليم يا ڤارينكا.. فإنها تنتهي إلى حسرات، متى أفاق المرء على الواقع الدميم.

دميم.. أجل.. ولا مهرب منه.. فدعينا من الأحلام يا ڤارينكا وخبريني كيف حالك، وكيف حال «فيدورا» معك.. أحسب عشرتها تطيب لك، فهي هادئة طيبة القلب، وتحت مظهرها الجافي باطن لين المهاد من الرحمة والحنان.

لقد حدثتك من قبل عن «تيريز» التي تقوم على خدمتنا هنا، وهي كصاحبتك «فيدورا» ممن فُطرن على الطيبة والمرحمة.. وقد رفعت عن صدري هَمَّ رسائلنا وكيف نتبادلها خلسة من أعين

الناس وسوء مظنتهم.. فتتولى تبريز هذا الأمر عن طيب خاطر، فهي رضية الخلق، على نقيض صاحبة البيت التي ترهقها بالعمل الشاق وتسيء معاملتها إساءة ليس عليها من مزيد.

* * *

ولأحدثك الآن عن مسكني الجديد.. وإنه لعمري لمسكن غريب، غريب في نظري على الأقل.. فقد تعودت فيما سلف من مساكني هدوء البال والصمت، فلا تسمع في البيت نأمة، وإذا طنت ذبابة في هوائه كان طنينها حدثًا يسترعي الآذان.. أما هذا البيت، فهو جهنم التي لا يكف لزبانيتها ووقودها صخب وضجيج.

فتخيلي يا عزيزتي دهليزًا طويلًا، شديد العتمة، شديد القذارة، جداره الأيمن ليس به شيء، وأما جداره الأيسر فسطر من الأبواب المتشابهة المتعاقبة على مدى متساوق كأبواب حجرات الفنادق.. وهذه هي أبواب الغرف المؤجرة للساكنين، ومنها ما يكتريه مستأجران أو ثلاثة مستأجرين.

وأما النظام؛ فأمر لا يجري له ذكر في خاطر أحد من أهل هذا المكان.. فكأنه فُلْك نوح!

بيد أن النصفة تقتضيني أن أشهد للسكَّان بالظرف.. فمعظمهم من أهل الثقافة والعلم.. وإن كان فيهم نفر من الضباط، وأولاء لا هَمَّ لهم إلا المقامرة إن ليلًا وإن نهارًا، لا يجدون عنها منصرفًا.

أما صاحبة البيت؛ فأعوذ برب الفلق من شر ما خلق! إنها عجوز قصيرة القامة خبيثة.. بينها وبين النظافة ترة! ولا همَّ لها سحابة اليوم إلا التنقل في البيت في زيٍّ حائل اللون وخفٍّ بالٍ، لتتعقب الخادم تيريز بقوارص الكلم!

وأما أنا، فمقامي في المطبخ! ليس فيه تمامًا، بل في حجرة صغيرة ملحقة به (ولا تنسي أن مطبخنا في هذا البيت حسن النظافة طيب الرائحة، مريح يتخلله النور والهواء). وإذا أردت التدقيق، فاعلمي أن المطبخ متسع جدًّا، له ثلاث نوافذ، فأقيم في وسطه حاجز أو ساتر جعل منه حجرتين، فخرجت لي تلك الحجرة التي نعمت بسكناها، وفيها تلك النافذة التي أرى نافذتك منها.

ولا تنسي أن هذا الموضع يتيح لي العزلة، فلا تصل إليَّ ضجة سائر السكَّان، ولا يكاد أحد منهم يحس لي وجودًا.

وقد جعلت فيها مائدة صغيرة للأكل والكتابة، وفراشًا، ومقعدين وصوانًا صغيرًا، وعلقت على الجدار أيقونة، فما ينقصني فيها شيء على الإطلاق.

ولست أجحد أن من المساكن ما يفضل هذا السكن فضلًا بينًا، ولكن أوجه الراحة التي تلزمني شخصيًّا بصفة خاصة تتوافر في هذا «الركن» الهادئ توافرًا لا مزيد عليه، وأنا امرؤ يتوخى الراحة ولا يكترث للأبهة والبذخ.

وهل من راحة أروح لي من تقابل نافذتينا، لا يفصلهما إلا فناء دارك؟ وإنه لعمري لفناء ضيق الرحاب، أراك فيه غادية أو رائحة فكأنني لو مددت ذراعي حري أن ألمس جدائل شعرك.. فيتبدد شقائي وتحبب إليَّ الحياة.

وثم مزية أخرى لا تُنكر، فهذا السكن رخيص، يفيض لي من كرائه ما أشرب به الشاي، وما كنت أذوقه إلا لمامًا، ولا سيما أن أهل هذا البيت قوم ذوو يسار، فاحتساء الشاي عندهم فريضة، فلا يخلق بي أن أشذ عنهم. وأما ما بقي من راتبي الصغير فمن لطف الله أن يسد خلاتي المتواضعة، كخصف نعل يبلى، أو تبديل ثوب يخلق أو معطف يرث.

وما أشكو زماني، فحاشاي أن أشكو وقد زاد مرتبي في السنوات الأخيرة، حتى بات يحسدني عليه الكثيرون من نظرائي. ولا يخلو عام من مكافأة عارضة أو هبة على وجه الاستثناء.

وقد اشتريت لك اليوم أصيصين من البلسم، وأصيصًا من زهرة الراعي (الجيرانيوم)، وجدتها زهيدة الثمن.. ووجدت عنده كذلك أصصًا من الفاغية حسانًا، فإذا رغبت في شيء منها فاذكري ذلك في جوابك، فليس الدكان بعيدًا، وأثمانه ليس فيها شطط.

وإياكِ أن ترجعي سكناي في هذا المكان المتواضع إلى غير سببها الحق. فما بي والله ضائقة ولا خصاصة، فإني أدخر لبارحات

الأيام شيئًا من المال يفيض عن حاجتي. وإنما هو التماس الراحة، والسعي إلى قربك.

لقد أطلت عليك.. ووقت عملي قد أزف، فأستودعك الله، وأطبع على أناملك الرخصة قبلة إعزاز.

من وليِّك الوامق

«مقار ديوفشكين»

ملحوظة: أستحلفك أن تردي عليَّ فورًا. وأرجو أن يعجبك رطل الحلوى الذي أبعث به إليك مع هذا الخطاب. وإلى اللقاء أيتها الأخت.

٨ أبريل

عزيزي السيد مقار:

أتعلم أن الأمر قد ينتهي بيننا إلى الخصام؟ فإني وايم الله لأجد في نفسي ألمًا لما تقدمه إليَّ من الهدايا والألطاف، فليس غائبًا عني ما تتجشمه في هذا السبيل من التضحية، وما تحرم نفسك من الضرورات من أجلي. وكم من مرة كررت على أسماعك أنني لست بحاجة إلى شيء على الإطلاق، وأن ظروفي لا تسمح لي أن أبادلك ألطافك الحسان بألطاف من مثلها أو تقاربها. ثم ماذا عسيت أن أفعل بكل تلك الأصص المزهرة؟ وإذا تغاضيت عن البلسم، فماذا تراي أفعل بزهرة الراعي؟ أهذا عقابي لأني أُعجبت بإحداها أمامك عرضًا، وبغير اكتراث؟ وما أظن إلا أنها كلفتك كثيرًا.. فهي

جميلة حقًّا.. لقد وضعتها على كل حال في منتصف النافذة، في مكان الشرف، وجعلت أمام النافذة رفًّا ثانيًا يتسع لمزيد من أصص الأزهار التي سأشتريها يومًا ما.. حين يواتيني مثيل ما تنعم به أنت من الثراء! وقد سر «فيدورا» ما أضفته هذه الأزهار من الرواء على حجرتنا، حتى باتت وكأنها جنة النعيم.

ولكن لماذا بعثت كل تلك الحلوى؟ الحق أنني تشممت شيئًا غريبًا من ثنايا سطورك الأولى، فقد أكثرت الحديث عن الربيع والزهر والشباب وشذى العطر وغناء العصافير، حتى توقعت أن تقع عيني في السطور التالية على قصيدة عصماء! فهل غدوت الآن من زمرة الشعراء؟ لست أراك ينقصك من عدتهم شيء، فلديك الأحلام الوردية، والعواطف الرقيقة المتدفقة، ولا أحسب الوزن والقافية يعييانك!

أما الستار يا صاحبي، فما فكرت أمس في إزاحة جانب منه كما وهمت.. وإنما هو قد أُزيح عفوًا، ويغلب على ظني أن ذلك قد حدث وأنا أرتب الأصص فوق رف النافذة.. لهذا لزم التنويه!

وأما ما حاولت من إقناعي بيسر حالك، فأمر لا يقنع أحدًا، ولا سيما فتاة مثلي تعرف مداخلك ومخارجك، وترى مبلغ ما تتحامل به على نفسك في سبيلها.. حتى اضطررت إلى ذلك السكن الذي يقل عن مستواك كثيرًا، فقد خبرتني «فيدورا» أن مسكنك السابق كان خيرًا من هذا السكن بكثير.

ولكن خبرني، هل أنفقت جميع عمرك متنقلًا بين البيوت المفروشة، تعيش وحيدًا فريدًا بين غرباء، لا أنيس لك ولا صديق، وليس من صدر حنون تطمئن إليه وتسمع منه لفظًا رقيقًا يجلو عن قلبك الصدأ؟

تالله كم أرثي لك يا صديقي! ثم لماذا تشتغل في الليل على ضوء الشموع، ما دام بصرك يتأذى من نورها؟ وما أحسب رؤساءك إلا مقدرين لك سابقة فضلك وحسن بلائك في عملك.

* * *

لقد صحوت اليوم منتعشة النفس كما صحوت أنت، فاشتريت حريرًا وانصرفت إلى العمل في جذل.. ولكن الضيق عاد إلى ركوب كاهلي. فماذا يخبئ لي الغد من الأحداث؟ أو تراني سأظل على هذا الحال، وخير منه برودة الموت وظلمة القبر.. فليس في حاضري ما يشجع على الاستبشار بالعيش والرضى بالبقاء. وليس في ماضي حياتي -وما أكثر ما ترود حولي أشباح ذلك الماضي- إلا ما يسوء ويحزن.. فما تكفي بحار الدمع لغسل ما رسب في نفسي من المرارة والحزن على ما لقيت من ظلم الناس، بغير جريرة جنيتها.

لقد أوشك الليل أن يخيم، فأستودعك الله وإن كانت الكتابة ترفه عنا ما نلقى ونعاني.. ولكن لماذا لا تأتي لزيارتي يومًا؟ افعل

بربك، وسأرفع جانب الستار الليلة، وعمدًا في هذه المرة. وطاب ليلك.

بربارا

٨ أبريل

سيدتي بربارا العزيزة!

جاءني خطابك، ورأيت بين سطوره مبلغ سخافة كهل في سني إذ يتحدث عن الشمس والزهر والربيع.. فشكرًا لك على هذا التنبيه.

ولكني لا أدري لماذا يتبادر إلى ذهنك أنني محروم من شيء، أو أنك تكلفينني ما لا أطيق. كلا.. فإني في يسر والحمد لله.

ثم كيف خطر لك أن تطلبي مني أن أزورك في حجرتك؟ أما تقدرين ماذا سيقول المتقولون من ألسنة السوء؟ إني أود أن أحظى بزيارتك، علم الله، ولكن أليس الحذر خيرًا وأولى؟

ليتني أراك غدًا في صلاة العشاء بالكنيسة، فمثل هذا اللقاء أليق وأسلم عقبى.

لقد رأيتك وأنت تزيحين الستار، ثم تبينت وجهك وأنت تسدلينه قبل النوم.. فشكرًا يا عزيزتي، ألف شكر. ورعاك الله وأبقاك يا بربارا لصديقك الصادق الود.

مقار ديوفشكين

٩ أبريل

عزيزي السيد مقار،

أتراني قد أسأت إليك وخدشت شعورك بخطابي؟ إن هذا لم يخطر ببالي يا ذا الفضل الذي يطوق عنقي أبد الدهر.. وإنما هي خفتي التي تغلب على لساني، فيخيل إليك أنني أتهكم، وحاشاي أن أتهكم أو أعرض لك إلا بكل حمد وثناء.. ولعلني ما انزلقت إلى ذلك المزاح البريء إلا لما خُيِّل إليَّ من غلبة المزاح والمرح على خطابك. فعفوًا يا عزيزي، ولا يخامرنك شكٌّ في إجلالي وإعجابي بمزاياك وسجاياك إعجابًا لا مزيد بعده لمستزيد.

إني صحوت اليوم ضيقة الصدر ملولًا، ثم اعترتني رعدة وغشيتني الحمى، حتى أقلقت حالتي «فيدورا»، فتعال لزيارتي يا صديقي، ولا يغلبن عليك الحرج، فليس في زيارة بريئة ما يضير.

فاغفر لي مرة أخرى، وتعال لأراك.

بربارا

١٢ أبريل

عزيزتي السيدة بربارا،

ماذا بك يا أختاه؟ أما تكفين يومًا عن إثارة القلق في نفسي على صحتك المرهفة؟ ألستُ قد كررت عليك في كل خطاب كتبته إليك، ألا تخرجي في البرد، وأن تتدثري بالملابس الدفيئة؟ ولكنك

واأسفاه لا تصغين إلى ما أقول، ولا تلقين إليه بالًا. فما أنت يا يمامتي إلا طفلة وإن تقدمت بك الأيام إلى ميعة الشباب. وما أوهن صحتك وأوهى عودك! فلا تهملي أمر نفسك يا أختاه، حتى لا تلقي بمن يحبونك في أتون القلق المقيم والقنوط الأليم.

لقد سألتني عن جيرتي الجدد، وإني محدثك من أمرهم بما تناهى إلى علمي أو مارسته بتجربتي القصيرة.

وأول ما يسترعي انتباه الإنسان في هذا البيت، أن له رائحة غريبة، ولا أقول كريهة.. ولكنها قد لا تُستساغ لأول وهلة، حتى إذا مكث المرء في البيت دقائق معدودات تشبعت يداه وأنفه، وعيناه، وثيابه، وجميع جوارحه وملابسه بتلك الرائحة، فلا يحس لها بعد هذا وجودًا.

والبيت منذ بكرة الصباح كخلية النحل، فمواقد الشاي (الساموفار) في البيت قليلة، وهي كلها ملك لصاحبته العجوز، فكل إنسان له دور معين في الحصول على نصيبه من الشاي الحار.. ومن تقدم قبل دوره أصابته ضربة من جريدة في يد ربة البيت، فيصيح السكَّان مهللين!

وحول مواقد الشاي، وفي انتظار دوري، تعرفت بجيراني وعرفت أحوالهم.. أما في الليل، فليس إلى النعاس المتصل سبيل؛ لأن الضباط يسهرون في حجرة واحدة يلعبون فيها الورق ويصخبون

معربدين في الفينة بعد الفينة.. ثم هناك أصوات أخرى تنبعث من هنا وهناك، تنم عن أمور تجري في جنح الظلام يخجلني الحديث عنها لأي إنسان، فضلًا عن ملاك مثلك.

ولكن ما يدهشني حقًّا، هو كيف يتسنى لأسر ذات ولد أن تعيش بأطفالها وسط هذا الفسوق المفضوح.. ففي البيت أسرة من هذا الطراز فاضلة تعيش في حجرة واحدة، لا يكاد يحس المرء لهم وجودًا، فهم منطوون على أنفسهم، وحين ينامون في الليل يجعلون في الحجرة فاصلًا من القماش بين منام الوالدين ومنام الأطفال الثلاثة.

والأب رجل هادئ جدًّا، فصل من الوظيفة لسبع سنين خلت لسبب مجهول، واسمه «جورشكوف»، فهو زري المنظر والملبس، إلى درجة تثير الألم فيمن يراه. وأحسبه مصابًا بمرض علمه عند الله، فركبتاه ترتعدان، ويداه ورأسه وكل شيء فيه يرتعد.. وإذا مشى لاذ بالجدران حتى لا يلمحه أحد.. أما امرأته فيبدو أنها كانت ذات حسن قبل أن تذوي نضرتها أحداث الزمن.. والحديث عن فقر هذه الأسرة لا ينتهي، فهم في ضنك شديد. ويقال إن الرجل ينتظر الفصل في قضية يتعلق بالحكم فيها كل أمل له في المعاش الكريم.

وأهول ما يهولني من أمر هذه الأسرة أنني قد أمر بحجرتها في المساء فأسمع شهقة بكاء، ثم همسات، ثم شهقات بكاء شديدة، فما يسكت الأطفال إلا عن كرب شديد ومذلة ماحقة.. وما يذكر

أحد في البيت أنه سمع أطفال «جورشكوف» صارخين يومًا أو ضاحكين أو باكين، فكأن حجرتهم قبر صامت. وما ورد ذكرهم على خاطري مرة إلا ركبني من ذلك همٌّ وجفا النعاس أجفاني.

والآن سلامًا يا عزيزتي «ڤارينكا»، فقد غامت نفسي لذكر هؤلاء المساكين.. وما كنت أود أن أصف لك حالهم، لولا أنك ألححت في معرفة جيرتي الجدد، فهاك هم.

واغفري لي يا ملاكي ما ترين في كتابتي من قصور في التعبير وعجز في الوصف والتصوير، فما أنا إلا كهل جاهل فاتته قافلة العلم صغيرًا؛ لأنه كان أفقر من أن يتعلم.

وإني لك على الدوام الصديق الصادق الإخاء.

مقار ديوفشكين

٢٥ أبريل

عزيزي السيد مقار،

قابلت اليوم بنت عمتي «ساشا»، فواحسرتا عليها! إنها تكاد تقضي بعلتها القاسية.. وقد علمت منها أن «أنا فيودروفنا» مجتهدة في استقصاء خبري، وتزعم أنها على استعداد للصفح عما فعلت، وتعتزم أن تزورني قريبًا.. وعلمت كذلك أنها تتقول عليك، وتزعم أن قرابتك لي لا تخولك القيام على شأني، وأنها هي أمسُّ رحمًا بي منك، وأن من العار أن أقبل منك المعونة فيما يقوم بأودي..

وأنها تنحي عليَّ باللائمة لأنني جحدت فضلها السابغ على أسرتي! وحتى أمي لم تعفها في ثراها من التقريع والتشهير والافتراء.

وأدهشني أنها تصر على خطئي، وأنني قد ضيعت فرصة سعادتي التي أرشدتني هي إلى الطريق إليها، وليس عليها من خطأ ما دمت لا أستطيع أو ربما لا أرغب في إنقاذ سمعتي! بربك خطأ من هذا؟ بل إنها تزعم أن «بيكوف» كان محقًّا إذ رفض الزواج مني، فما ينبغي أن يتزوج الإنسان من أول فتاة يجدها بين ذراعيه.

رباه! إن هذا فظيع! أما كفاني ما لقيت من هذا التاريخ الأسود، حتى أتجرع غصص الغبن وسوء التقدير؟ عفوك يا صديقي لهذه الثورة، فإني لا أملك نفسي من البكاء والنشيج.

ولا تُلْقِ بالًا إلى تهويلات فيدورا عن صحتي، فإني خير مما تصور لك بكثير.. وإنما هو برد طفيف أصابني حين توجهت أمس إلى القداس الذي يقام في «فولكوفو» على روح أمي المسكينة.

لك الله يا أمي! ليتك تخرجين من قبرك، وليتك تعلمين وتشهدين ما ألقى من بعدك، وإنه لأهون الهوان وأفدح الخسران!

بربارا

٢٠ مايو

يمامتي ڤارينكا،

إليك يا يمامتي شيئًا من العنب، فهو في رأي الأطباء مما تصلح

به النقاهة ويدنو به البرء، وليس كمثله شيء لنقع الغلة الصادية.. وإليك أيضًا شيئًا من الخبز الأبيض، سمعتك تشتهينه منذ أيام، فعسى أن تكون شهوتك للأكل طيبة، فذلك هو لباب العلاج من دائك... وأحمد الله أن ظلاله القاتمة انجابت عن جسدك الرقيق، فانجابت بذلك عن قلبي سحب الجزع المضني. ألف شكر لله على تلك المنة العظمى يا أختاه.

وأما ما حدثتك به فيدورا عني فلا تصدقيه، فلم يخطر لي قط أن أبيع كسوة عملي الجديدة، فلماذا أبيعها؟ لماذا بالله عليك؟ فالمال لا ينقصني، وسأقبض مكافأة طيبة عما قريب. فلا تلقي بالًا إلى ترهات فيدورا، ولا تهتمي إلا بما يعجل شفاءك، فإنك إن شفيت سريعًا أتحت لنا أكمل سعادة تتاح للبشر في الحياة الدنيا.

ثم من ذا الذي زعم لك أنني قد ضمر عودي وأصابني الهزال؟ محض افتراء! فأنا في خير حال، بل أحسبني سمنت سمنًا خليقًا أن يخجلني من نفسي.. فليس ينقصني شيء، وأما الطعام والشراب فإني أصيب منهما شبع بطني.. وليس ينقص من سعادتي إلا مرضك، فابرئي منه تتم لي نعمة الله جميعًا.

وأستودعك الله يا عزيزتي، ناثرًا على أناملك الدقاق ألف قبلة من صديقك الذي يحفظ عهدك ويرعاه.

مقار ديوفشكين

ملحوظة: لا تلحي عليَّ في الزيارة، فقد زرتك حين غيبتك الحمى عن وعيك، ولكني لم أعد إليها لما رأيت الهمس قد بدأ ينوشنا بما لا يرضي الحق.. فلو زرتك الآن فما عسى أن يظن الناس بنا؟ فاصبري حتى تشفي، ثم ندبر بعد ذلك أمر لقائنا في مكان بعيد عن بيتينا.

أول يونيه

عزيزي العزيز،

كم وددت أن أقدم لك شيئًا ينهض بمعروفك وأياديك البيضاء، ولكني لا أملك إلا قلبي العارف بالجميل، الحافظ للود، المغمور بفضلك العميم ورحمتك وبرك، وما تجشمت من مشقة وعناء وقلق أيام مرضي الطويل.

ثم عنَّ لي، في لحظة إشراق روحي، أن أنقب في درج الذكريات الذي أحتفظ فيه بتذكاراتي القليلة، حتى وجدت الكراسة التي كنت قد بدأتُ فيما مضى أدون فيها قصة أيامي، يوم كان للسعادة والعناية بقصة أيامي موضع.. وإني أبعث إليك بها الآن لتقرأ صفحاتها القلائل.. فهي أعز ما عندي؛ لأنها مرآة سريرتي.

فكثيرًا ما سألتني يا صديقي عن سالف أيامي، وعن أمي، وعن «أنا فيودروفنا» ومقامي في بيتها زمنًا، ثم عن الكوارث التي انحدرت بي إلى نهايتي الراهنة. فعسى أن تجد جواب سؤلك في

هذه الصفحات التي سودتها في أوقات متباعدة.

أما أنا يا صديقي، فما وجدتُ في تلاوتها اليوم إلا ما يثير الكآبة ويشيع المرارة في نفسي.

ووداعًا يا مقار.. فإني أرزح تحت عبء من السأم والملالة ثقيل، وقد بات الأرق يلازمني في هذه الأيام حتى جعل نقاهتي كالصحراء الموات لا نابتة فيها تصافح العين، أو نأمة طير تؤنس الأذن.

بربارا

* * *

أصداء الزمن

صفحةٌ طويت..

لم تكن سني قد جاوزت الرابعة عشرة حين مات أبي، فانتهى بموته عهد طفولتي، أسعد عهود حياتي بالإطلاق.

آه لذلك العهد الذي مضى ولن يعود! لقد نعمت به زمنًا رغدًا في بلد غير هذا البلد، بعيد موغل في البعد، في موضع من الريف قصيٍّ.. فقد كان أبي حينئذ ناظر أملاك الأمير «ب»، فكنا نقيم في قرية من القرى التي تضمها أملاك ذلك الأمير.

شد ما طابت لنا تلك الإقامة التي يرفرف عليها الهدوء، وتكتنفها الطمأنينة! فقد كنت في ذلك الأوان فتاة دافقة الحيوية كثيرة الحركة، فكنت أقضي معظم أوقاتي راتعة بين الحقول، ضاربة بين الأحراش والآجام، أو لاعبة في البستان المزهر الحافل بأفانين الشجر والريحان، لا يعترضني أحد، ولا يتعقبني بالرعاية

إنسان؛ فأبي دائم الشغل بما تقتضيه إدارة الضياع الواسعة من جهد وحركة.. وأمي لا تدع لها شؤون البيت فسحة من فراغ، فلم يُعْنَ بتعليمي أحد من ذويي، وتُركت على سجيتي.

وكم من يوم تسللت من البيت «والشمس في خدر أمها، والطل لم يجر ذائبه»؛ لأشهد يقظة الطير في البحيرة المجاورة، وخروجه من وكناته ناشطًا لتحية الحياة بخفق أجنحته وأنغام صداحه المتجاوب بين الأرض والماء والسماء.

وكم من نهار قضيت سحابته في الغابة بين الشجر الألفاف، والدوح السامق، والظلال التي لا يُسبر غورها البصر.. أو في الحقول التي انتشرت فيها مناجل الحصاد، أرقب الحاصدين والحاصدات والعرق يتصبب كالجمان على وجوههم، والقمح كأنه الذهب الوهّاج بين أيديهم وفي أحضانهم.. غير مكترثة لوهج الشمس، أو للوحدة في البراري والأحراش.. حتى إذا عدت إلى الدار أنبني والدي أو قرعتني أمي، فما كنت آبه لذلك فتيلًا.

وأحسبني كنت قمينة ألا أسأم تلك الحياة بين أحضان الطبيعة، لو أنها دامت إلى ما شاء الله... بيد أن الأيام لم تسنح بما أهوى، وكُتب علينا أن نغادر ذلك المقام الهنيء إلى «بطرسبرج»، وأنا بعدُ طفلة في الثانية عشرة.. وما ذكرت يوم رحيلنا مرة إلا استهلت بالدمع عيناي.. فقد بكيت بكاءً مرًّا وأنا أودع كل ترب من أترابي، وكل صديق من أصدقائي.. وكل إنسان، وكل حيوان، وكل نابتة في

الحقل كانت صديقًا لي نعم الصديق في ذلك العهد السعيد.

وإني لأذكر أنني تعلقت بعنق أبي في ذلك اليوم، وتوسلت إليه باكية أن يتركني في القرية زمنًا قصيرًا، أتزود من تلك الربوع بما يسليني إذا ذكرتها، وقد نزحت الدار وشط المزار، فاستشاط أبي غضبًا... أما أمي فانفجرت باكية، وقد هاج دمعي عند الوداع كامن حزنها وشجاها... ثم همست في أذني أن الأحوال قد تبدلت غير الأحوال، فقد مات الأمير «ب» الشيخ صاحب الضياع، فاستغنى ورثته عن خدمات أبي، فلم يبق مناصٌ من النقلة إلى بطرسبرج، حيث كان أبي قد استودع نفرًا من معارفه ما ادخره من مال يسير، لعله يجد في ذلك البلد رزقًا، ويجعل الله له فيه بعد عسر يسرًا.

كذلك حثت خطانا الأيام من منزل السعد في أقصى الريف إلى أن أنزلتنا ذلك المنزل النكد في ضفة بطرسبرج اليمنى، حيث عشنا عامين مات في ختامهما أبي وأنا لا أعدو الرابعة عشرة من عمري.

وشد ما كلفني تغير الأمور من حولي، فلا أجد شيئًا مما ألفت، ولا علم لي بما يتكشف عنه قناع الغد. فكأنني في متاهة من حيرة العقل والضمير.

وكيف لا، وقد غادرت القرية وشمس الربيع تبعث الحياة في كل شيء، حتى في أطلال الأكواخ وأحجار الطريق! فإذا بي أصل إلى بطرسبرج فألفيها متشحة ببرودة الخريف المكفهر، فلا شمس

ولا حياة، ولا الأفق يترامى ما امتد البصر، فلا يرتد وهو حسير.. ولا الطير غاد رائح على حقول القمح أسرابًا أسرابًا، وأصواته تشيع في الهواء الفرح وتبعث النفوس المنطوية على التفتح للحياة نافضة عنها الأحزان.

كلَّا! ذلك كان في الريف، أما في بطرسبرج فالمطر والضباب، والبيوت القائمة في كل مكان كأنها سجون الأبصار والأرواح! وأين من أسراب الطير الصادح وحداء الفلاح الكادح تلك الجموع من أهل الحاضرة الكبرى يتزاحمون ويتدافعون، ولا آصرة بينهم ولا ألفة، فكلهم غريب، وما من غريب فيهم للغريب نسيب! فكلهم مشغول بشأنه، مزورٌّ عن غيره، لا يرد التحية إلا متأففًا، فالملل، والتمرد والتبرم بالحياة طابع المدنية الغالب على أهلها، فكأنهم أشباح حكم عليها بالعذاب في واد من وديان المطهر، يريدون لو فروا ولا يستطيعون.

* * *

صنع الله لي! فما كان أضيق صدري حين فتحت عيني على أول صباح لي في بيتنا الجديد، بعد ليلة تحالف الكرى وجهد السفر فيها على أجفاني.. لقد نظرت من نافذة دارنا الجديدة، فإذا خرابة مسورة وشارع قذر لا ينقطع عنه مورد الوحول والأوساخ، لا يمر به الناس إلا نثارًا متفرقين، وعليهم أدثرة ثقال.. فيعدي مرآهم الناظر برعدة البرد الزمهرير.

وكأنما كان ذلك المنظر الخارجي آية على نمط حياتنا القابلة، فلم يمض علينا يوم في ذلك البيت من دون مكدر، ولا سيما من جهة المال. فقد اضطربت أحوال أبي ووقعت بينه وبين «آنا فيودروفنا» جفوة بسبب دين لها عليه مطلها إياه مُكْرهًا لسوء حاله. وما أكثر ما كان يزورنا قوم مستأدين حقهم فيكثر الصياح والنقاش، حتى إذا خرجوا نفث فينا أبي غيظه المكتوم، وصب علينا جام غضبه، أو أنشأ يذرع البيت ساعات طويلة لائذًا بالصمت متجهم الأسارير، فلا تجرؤ أمي على خطابه.. وأما أنا فأنتحي ركنًا قصيًّا لأقرأ في كتاب، محاذرة أن يند عني صوت ينبه إلى وجودي.

وما إن انقضت على نقلتنا إلى بطرسبرج ثلاثة أشهر حتى أدخلوني مدرسة داخلية، فشق العيش فيها على نفسي بادئ ذي بدء؛ لما في تلك المعاهد من وحشة وصرامة، فضقت ذرعًا بالمربيات والمعلمين، وسئمت الحياة في شهوري الأولى هناك، فكم من ليلة قضيتها ساهرة يأبى النوم فيها أن يزور مقلتي المقرحة الأجفان. وكم من أمسية جلست الطالبات للاستذكار تحت رقابة مشرفة عبوس، قضيتها جالسة مثلهن أمام الكتب والأوراق، فلا أرى منها شيئًا؛ لأن خاطري قد انطلق بعيدًا، إلى حيث أبي وأمي ومرضعتي العجوز التي طالما أسمعتني أحاديثها وأقاصيصها العذاب، فاستهوت خيالي المشبوب.. حتى إذا عدت من رحلتي الحالمة، ران الأسى على نفسي حتى لتشتهي الموت... فأين من ذلك الصمت، ومن

هذا النظام الصارم ورعاية السمت، دفء البيت، وحرية الحركة فيه وقبلة الأم الحنون التي تشرح الصدر الحزين.

فإذا أصبح الصباح كنت أجهل التلميذات بدروسي، فيعاقبني الأستاذ الهضيم الوجه بالركوع في مقدمة الفصل، ويحرمني من وجبة الغداء! فأُضحي أضحوكة التلميذات، ومثار هزئهن، وتمادى فريق منهن فصار يعابثني، ثم يشكوني إلى المشرفة ظلمًا.. فأظل طول أيام الأسبوع في كرب شديد، إلى أن تأتي مرضعتي مساء السبت لتصحبني إلى البيت، جنتي الموعودة.. فأدخله مشرقة الأسارير، وقد أُنسيت بدخوله ما أشقاني في البعد عنه، فإذا جلسنا للعشاء جعل أبي يسألني عن مدى ما حصلت من العلوم، ومن اللغة الفرنسية على الخصوص، فقد كان الرجل يقتطع من لحمه ودمه لينفق على تعليمي، فَحُقَّ له أن يستأديني الجد والاجتهاد.

ومضت الأسابيع تباعًا، وشبح الضنك تتعالى دقاته على بابنا أسبوعًا بعد أسبوع، فأرى صدى تلك الدقات على وجه أمي وسحنة أبي، وأسمعه قوارع لاذعة يصبها أبي على رأسي وعلى رأس أمي المسكينة، لسبب تافه أو لغير سبب على الإطلاق.

وانحدر الرجل إلى هاوية الشيخوخة الباكرة انحدارًا سريعًا، بما أكل الهم من قلبه وما عب من دمه.. فلما أصابه البرد ذات يوم أودى به كما تودي الريح بالسراج، فلم يمهله إلا أيامًا معدودات.. فقضت أمي أيامًا بعد موته لا تفقه ما حل بنا، فقد استعصى على

فهمها أن تصدق أنه مات بتلك السرعة، وتركها في خضم الحياة وتركني بلا سند ولا معين.

وما غوضر أبي قبل أوانه، حتى انشقت الأرض عن دائنين عدد الحصى والرمال! فاضطررنا إلى الخروج لهم عن كل شيء، وصرنا بلا مأوى، وبلا مورد يمسك علينا أودنا وماء وجوهنا.

وكانت أمي تشكو ضعفًا عامًّا وانحطاطًا شديدًا في قواها لا شفاء منه إلا بتغذية جيدة، بتنا ولا طاقة لنا بها.. فكأننا على شفير هار.

وفي تلك المرحلة القاسية من حياتنا، أقبلت علينا «آنا فيودروفنا»، وفتحت لنا صدرها، زاعمة أن لها مالًا يغل عليها ما يفيض عن حاجتها، وأنها من ذوات قربى أبي، فهي مسؤولة أن تجنبنا ذل المسغبة. وأظهرت من الرقة لنا ما عطف قلبينا نحوها، وكيف لا، ومثلنا ومثلها كمثل الأرض الموات والسحاب الممطر الغدق.

فلما دعتنا إلى الإقامة في بيتها لبينا الدعوة؛ لأنه لم يكن عن تلبيتها محيص.. وانتقلنا إلى منزلها في حي «فاسيلييف» ذات صباح مقرور الأنفاس، مشعشع بأشعة الشمس، وكأنما أصابت حرارة الشمس في ذلك اليوم فترة.

فكان وقع خطانا، وبكاء أمي وهي تنقل خطاها إلى جواري

على اتساق مع الطبيعة المكتئبة، فأحسست كأن يدًا باردة تعصر قلبي بين جنبي حتى لتكاد تستل روحي.

لقد كنا على أبواب من داخلها العذاب الأليم.. ولكن لم يكن لنا بدٌّ من الدخول، فدخلنا.

❊ ❊ ❊

في الليلة الظلماء

وما كان لنا حين نزلنا في دار «آنا فيودروفنا» إلا أن نحس الوحشة لتبدل الألف وتحول الحال.

وكان بيتها عبارة عن خمس حجرات، تعيش في ثلاث منها «أنا فيودروفنا» وابنة عمتي ساشا، وساشا فتاة يتيمة لطيمة، مات عنها أبواها فتكفلت بها «أنا». فأقمنا نحن في الحجرة الرابعة. أما في الحجرة الأخيرة -وهي التي تجاور حجرتنا- فيكتريها من «آنا» طالب علم شابٌّ رقيق الحال اسمه «بوكروفسكي».

والحق أن «آنا» كانت تعيش في بحبوحة لم نكن من قبل نحسبها تنعم بها، وإن كان مورد معاشها لا يزال حتى ذلك الوقت سرًّا من الأسرار، فهي لا تني عن الحركة والخروج بضع مرات كل يوم، وتستقل العربة كلما خرجت، وإذا لم تخرج ظل الضيوف يتدفقون على بابها في زيارات خاطفة قد لا يزيد بعضها على دقائق معدودات تقضيها في التهامس مع زائرها بنجوة عن الآذان.. وكانت

أمي تحرص على الذهاب بي إلى حجرتنا الخاصة كلما رن جرس الباب، فيبدو من ذلك امتعاض على وجه «آنا»؛ لأنها كانت تحب أن يرانا الناس في ركابها لتزهو بإحسانها إلينا.. وحفزها هذا الترفع منا إلى مخاشنتنا... فهي تزهو علينا وتمتن، وإذا جلسنا للطعام جعلت تحصي علينا بنظراتها القاسية اللقيمات التي تطاوعنا أفواهنا على التقامها، فإذا ثارت كبرياؤنا يومًا ولم تواتنا الشهوة للطعام، ثار ثائرها وعَزَتْ ذلك إلى ترفعنا عن الطعام لتواضعه، وما به من تواضع.. وإنما هو شعورنا بالضعة والهوان.

وكم من مرة نبشت قبر أبي بلسانها السليط، مطمئنة إلى أننا لا نملك لعدوانها دفعًا، فالدمع متنفسنا الوحيد من ذلك الضيق الجاثم على صدرينا.

ولم نجد لنا مخرجًا من ذلك الضنك إلا العمل، فأخذنا نتنقل بين البيوت للحياكة فيها، مع ما في ذلك من إرهاق لأمي التي يزداد هزالها يومًا بعد يوم... لعلنا ندخر شيئًا يكفل لنا الاستقلال بمعيشتنا بعيدًا عن «آنا» وبيتها المنكود.. فأتى هذا العمل المضني على البقية الباقية من عافية والدتي، وباتت تهوي إلى قضائها بين سمعي وبصري، فلا أستطيع لها شيئًا.. وماذا تستطيع عاجزة فقيرة أمام سطوة الجوع والمرض؟

ومضت الأيام أشباهًا في قتامها وملالتها وثقل خطاها، ومن أين يأتينا الشعور بالتغير؟ لقد كنا نعيش بمعزل عن الدنيا قاطبة، فكأننا

لسنا من أهل المدينة التي تموج بالناس وتضطرب بالأحداث، بل إننا صرنا أقرب إلى اعتزال «آنا فيودورفنا» لأنها طامنت من غلوائها لما رأتنا خاضعتين لها، لا نفكر في دفع الأذى عنا أو مناقشتها فيما ترمينا به أو تنوش به ذكرى أبي. وكان يفصل حجرتنا عن حجراتها الثلاث دهليز صغير، فكأننا في جناح مستقلٍّ لا يشاركنا فيه إلا الطالب الفقير «بوكروفسكي».

وكان «بوكروفسكي» يلقن ابنة عمتي «ساشا» دروسًا في اللغة الفرنسية واللغة الألمانية والتاريخ والجغرافيا وسائر العلوم، في مقابل المسكن والمأكل؛ لأنه لا يملك موردًا للعيش إلا تلك المهنة الشاقة.

وأقول إنها مهنة شاقة؛ لأن «ساشا» التي لا تعدو الثالثة عشرة من عمرها، شيطانة خبيثة لا تفرغ لها فنون من العبث والمناورة.

وقد ألمعت «آنا فيودروفنا» لأمي أنني أحسن صنعًا لو أفدت من هذه الدروس المجانية، ما دام موت أبي قد حال دون إتمام دراستي، فرحبت والدتي بهذه الفكرة، وكذلك بدأتُ حقبة دراسية تعلمت فيها على يد «بوكروفسكي» وزاملت فيها ساشا مدى عام كامل.

وقد كشفت لي هذه الدروس عن حقيقة معلمي، فإذا هو مثلنا فقير معدم... وإذا المرض والفقر قد اجتمعا على بنيته الضعيفة، فلا يتاح له المواظبة على حضور دروسه في الجامعة.. حتى بات نعته

بالطالب أثرًا من آثار العادة لا تقريرًا من تقريرات الواقع.

ولم أر في حياتي شخصًا في مثل هدوئه وحيائه الشديد، ولعل مرد هذا إلى خزيه من فاقته وزراية مظهره، فكان هذا الارتباك الذي لا يفارقه في كلام أو مشية أو تحية يثير ضحكي كلما رأيته، فلا أستطيع مغالبة الضحك، وإن اجتهدت في كتمانه طاقتي.. ولا سيما أن «ساشا» الخبيثة لا تكف عن تدبير المعابثات والنكايات أثناء الدرس.

وزاد من استثارته للضحك والمعابثة أنه كان سريع الغضب، يصرخ لأتفه إثارة، وكثيرًا ما كان يقطع الدرس وينصرف إلى حجرته غاضبًا، ونحن نضحك منه ملء شدقينا.

وأكثر وقته كان يقضيه في حجرته منصرفًا إلى القراءة في كتبه الكثيرة، فكل ما كان يحصله من إعطاء الدروس الخاصة في بيوت الطلاب، كان يشتري به ما يقع في نفسه من الكتب بالغًا ما بلغ ثمنه.

فلما انقضت فترة من الوقت، تكشف لي هذا المظهر الخادع عن حقيقة لا تشبهه إلا مشابهة النقيض للنقيض، فإذا نفس نبيلة وقلب سريٌّ، وإذا فتى هو أخلق الناس بالتقدير، وأولاهم بالفضل والكرامة فيمن عرفت طول حياتي، فأضحى أصدق أصدقائي بعد أمي.

وقد تفتحت عيني على هذه الحقيقة بعد عماية حمقاء تخبطت فيها مسوقة إليها بقدوة «ساشا» الرعناء، ففيما نحن نسخر منه ذات

يوم وقد أخذتنا نشوة المعابثة والخفة والتلذذ بمرأى هذا الفتى مغيظًا ثائر الأعصاب، ترقرق الدمع في عينيه من فرط ما أشعره من القهر، وقال في صوت يختلج فيه البكاء الحبيس، وكأنه يحدث نفسه:

- رباه! ما أضرى الشر في نفسيكما أيتها الصغيرتان!

فكأنما نفذت كلماته إلى شغاف قلبي، فشعرت في تلك اللحظة بفداحة جرمي، وخجلت من نفسي خجلًا شديدًا، وقلت له في توسل صادق والدمع يكاد يخنقني:

- هدئ روعك، ولا تغضب، فما قصدنا إيذاء شعورك، فلا تؤاخذنا بسفاهتنا وألق علينا بقية الدرس.

ولكنه أبى، وأقفل الكتاب، ثم انصرف إلى حجرته غاضبًا، فبقيت سائر ذلك اليوم نهبًا للندم والأسى؛ لأننا أذللنا كبرياءه حتى دفعناه إلى البكاء دفعًا.

ولم أذق في ليلتي تلك طعم النوم إلى أن طلع الصباح، فما أذكر ليلة أشأم من تلك الليلة فيما مر بي.

وإني لأعجب ممن يزعم أن الندم يغسل الحوبة ويسري عن النفس ما تجده من تأثم، ويرفع الحرج عنها.. فما وجدت شيئًا من ذلك حين تنفس الصبح عن ليلتي الليلاء.. ولعل شيئًا من العزة قد خالط ندمي، فقد آذني أن يراني طفلة مثل ساشا وأنا في الخامسة

عشرة من عمري.

ومنذ ذلك اليوم صار شغلي الشاغل تبديل تلك النظرة، والعلو بمكانتي واعتباري عن ذلك الدرك الذي ترديت فيه بعبثي السخيف.

❊ ❊ ❊

صورة أب

وأراني مسوقة في هذا الموضع من مذكراتي إلى الكلام عن أعجب من رأيت من الناس وأدعاهم إلى السخرية والإشفاق في آنٍ واحد. وإذا كنت لم أُجْرِ قبل هذه الساعة له ذكرًا، فما ذلك إلا لأنني لم أتنبه لوجوده من قبل.. أما وقد بات يعنيني بين عشية وضحاها كل أمر له بأستاذي «بوكروفسكي» صلة، فذلك الشيخ الغريب الأطوار أهل لديَّ لكل رعاية واهتمام.

فقد كان يلم ببيتنا بين الحين والحين شيخ قصير القامة، زري الملبس، أشيب اللحية، ضاوٍ، متخبط الحركات.. فهو معجز في غرابة شخصيته وشذوذ هيئته، فالذي يقع في النفس لأول وهلة أنه امرؤ رازح تحت وفر من الخزي، فهو ضيق الصدر بنفسه التي بين جنبيه، يتمنى لو واراها عن الناس! إنه يمشي متسللًا لائذًا بالجدران كي يواري من شخصه ما استطاع. ولكن حركات وجهه وإشاراته الشاذة كانت تلفت إليه الأنظار، وتوقع في الأذهان أنه إنسان مسلوب العقل.

وكان هذا الشيخ إذا جاء إلى بيتنا لا يجسر على الدخول من الباب الزجاجي، بل يبقى في الدهليز الخارجي محاذرًا أن يند عنه صوت، فإذا اتفق مروري به أو مرور ساشا أو أحد الخدم من يأنس فيهم الميل إليه، حيا بحني رأسه دون أن يتكلم، وأشار بيده إشارات تدل على الرغبة في الدخول مع التوجس من وجود الغرباء.. فإذا أشير إليه أن ليس ثمة غريب بالدار، وأنه لا مانع من دخوله، أقدم على اجتياز «العقبة» وقد سرت في وجهه علائم البشر والحبور، واتجه من فوره إلى حجرة «بوكروفسكي» لا يلوي على شيء.. فذلك الشيخ أبوه.. وقد عرفت بعد ذلك دقائق تاريخ هذا الشيخ المسكين، فقد كان موظفًا في ديوان من دواوين الدولة، ولكن افتقاره إلى الذكاء واللباقة والحزم قعد به عن الرقي، فبقي حيث بدأ خاملًا مغمورًا. ولما ماتت امرأته الأولى -والدة بوكروفسكي- سولت له نفسه أن يتزوج من فتاة تنتمي إلى الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى، فكانت هذه الزوجة الجديدة فاتحة عهد جديد من الارتباك الشامل والأزمات الشداد تتوالى وتتزاحم على منكبي الزوج الضيق العقل المطموس البصيرة والشخصية؛ فهي امرأة مستبدة، شكسة، سليطة اللسان، جموح.

وكان بوكروفسكي يوم بنى بها أبوه طفلًا لا يعدو العاشرة من عمره، فسامته هذه المرأة القاسية سوء العذاب، حتى أخذت الشفقة به سيدًا من سراة التجار طالما شمل بوكروفسكي الأب بعطفه فأولى

الغلام اليتيم رعايته، وأدخله القسم الداخلي في إحدى المدارس على نفقته الخاصة. واسم ذلك السيد الأريحي الكريم «بيكوف»، وسر عطفه على الغلام أن بيكوف قريب «آنا فيودروفنا» التي ربت أم بوكروفسكي فتاة إلى أن زوجتها، وكانت بائنتها خمسة آلاف روبل، خرج عنها السيد بيكوف من حر ماله صدقة خالصة.

ولست أدري ما صنع الدهر بهذه الآلاف الخمسة من الروبلات، فمبلغ علمي عن هذا الموضوع ما صرحت لي به «آنا فيودروفنا»، أما «بوكروفسكي» نفسه فلم يكن يحب الخوض في حدث أسرته وماضيها.. وإذا صدق ما بلغني عن جمال أم «بوكروفسكي» الباهر، فما أعجب إقدامها على الزواج -في بكرة صباها القصير- من رجل فيه من البلاهة والقماءة ما فيه.. على فقر وكهولة.. وإن لم يكن عجيبًا أن تسوء صحتها بذلك الزواج، فتموت في إبَّان شبابها قبل الأوان.

وواصل بوكروفسكي دراسته موفقًا فيها إلى أن دخل الجامعة، وكان السيد «بيكوف» يحضر إلى بطرسبرج بين الحين والحين، فيشمله برعايته ويزوده بما يلزمه من المال.. حتى إذا عاقته صحته عن مواصلة الدرس في الجامعة، قدمه إلى «آنا فيودروفنا» وأوصاها به خيرًا، فأنزلته في بيتها، وكفلت له فيه المأوى والمأكل مقابل تعليم الخبيثة «ساشا».

أما والده الشيخ فزادت حاله سوءًا، وأفضى به الحزن والهم لما

تصبه زوجه على رأسه من جام العذاب إلى إدمان الخمر، حتى بات لا يفيق.. كأنما قد كان ينقصه هذا الداء الوبيل ليضيف إلى نقائصه نقصًا جديدًا.

فلما أدمن الشراب زادته امرأته نكالًا، وصارت تضربه، ولا تسمح له بالنوم إلا في المطبخ! حتى أصبح الضرب عنده صنو الخمر، يتقبله منها دون مقاومة ودون استياء!

وقد عجلت هذه الأرزاء بشيخوخته، فهو أصغر بحساب الأيام والسنوات مما يبدو للناظرين، ولكنها آفاته الشديدة، أسلمته إلى الهرم وبلغت به أعتاب الجنون، وأخذت تدق له بابه دقًّا عنيفًا، فهو أشبه الناس بالدواب والبهم، لولا عاطفة إنسانية واحدة تسمو به عن ذلك الدرك، هي حبه لولده «بوكروفسكي» حبًّا لا حد له.

ويقال إن «بوكروفسكي» يشبه أمه شبهًا غريبًا، فلعل ذكرى تلك الزوجة المفقودة هي التي تلهب مشاعر الرجل المفجوع بها مرتين: مرة لفقدها، ومرة لما أُصيب به حين استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومهما يكن من شيء، فالذي لا شك فيه أن الشيخ كان مولعًا بولده، فلا حديث له إلا عنه.. ولا ينقضي أسبوع دون أن يأتي لزيارته مرتين، وأحسبه لم يكن يزيد عليهما؛ لأنه كان يعلم أن ولده لا يرتاح إلى وجوده معه. وأظن ازدراء الفتى لأبيه كان أبرز

أخطائه ونقائصه طرًّا.. بيد أن الإنصاف يقتضينا أن نقرر الواقع، فالشيخ كثيرًا ما يستنفد ببدواته وسماجته صبر كل صبور، وما أكثر ما يصرف ولده عن عمله أو يقطع عليه حبل قراءته بحديث لا ترابط بين حلقاته، وأسئلة لا معنى لها ولا طائل تحتها.. يضاف إلى ذلك كله أنه قد يأتي لزيارته مخمورًا.

وقد حاول الشاب أن يثني والده الشيخ عن عاداته الوبيلة، وأن يصرفه عن الفضول والثرثرة.. حتى أفلح في حمله على التزام الصمت التزامًا تامًّا، فلا يفتح فمه إلا حين يأذن له في الكلام.

وما كان هذا الإقلاع عن عادات طال عليها الأمد، واتصلت جذورها العميقة بنقصه النفساني المزمن، ممكنًا لولا سلطان الولد على أبيه، فالشيخ معجب بابنه أشد الإعجاب، وهو عنده مثل أعلى أو قبس خارق من عالم الأرباب... فلا يدخل عليه إلا متطامنًا متضائلًا كالمستغفر، وبعد تردد طويل في الدخول، فإذا لقيني في الدهليز استوقفني ليسألني عن أحوال ولده سؤالًا في إثر سؤال، حتى لقد يطول بنا ذلك الحديث، أو التحقيق، ربع الساعة أو عشرين دقيقة، تدور كلها حول حالة الفتى الصحية، وما يشغله في هذا الأوان، أهو الكتابة أو التفكير في موضوع فلسفيٍّ؟ وهل مزاجه معتدل؟ حتى إذا طمأنته وشجعته استخار الله في الدخول.. فيفتح باب الحجرة ويطل منه برأسه، فإذا ما رأى من ابنه بشاشة الأنس والترحيب ولج الباب على أطراف أصابعه، ثم خلع معطفه

البالي وقبعته التي انتشرت فيها الثقوب وكاد البلى يفصل سقفها عن جوانبها، مخافتًا من حركاته كمن يخشى أن يوقظ نائمًا خفيف الجفن، ثم اتخذ لنفسه مجلسًا يكمن فيه مثبتًا نظراته في ولده، حتى لا تفوته شاردة ولا واردة من حركاته وقسماته وكلماته. فإذا لمح فيه ما ينم عن الانقباض والازورار، نهض من مقعده منصرفًا متعللًا بأنه لم يكن يريد الزيارة، وإنما قد عنَّ له أن يمر بابنه في طريقه مرور استطلاع، وكيما يستريح برهة قصيرة لأن الموضع الذي قصده بعيد الشقة.. ثم يتناول قبعته ومعطفه ويخرج كما دخل في هدوء، وعلى شفتيه ابتسامة يصطنعها ليخفي عن ولده ما شاع في نفسه من الأسى.

أما إذا أحسن الفتى استقبال أبيه وهش له، فما تكاد تتسع له الدنيا من شدة الفرح... فللسرور في مقلتيه فيض من اللألأ لا يعهد في نظرتهما الكابية، وللبهجة في حركاته خفة واتساق.. فإذا ما وجه إليه ابنه الكلام تحفز للنهوض من مجلسه وأجابه في نشاط تمتزج به الرقة والتواضع والإكبار الذي يكاد يدخل في باب العبادة والتقديس، فيتخير ألفاظه تخيرًا يشق عليه فلا يستطيع استعمالها في مواضعها على وجهها الصحيح، فتخرج العبارات من فمه آية في الفكاهة والطرب، وما قصد إلى فكاهة أو طرب... وتستبد به الحيرة حينئذ، فلا يفتأ ينقل يديه لا يدري أين يخبئهما، فعل الجاني المتلبس بجريمة يثقل عليه وزرها. ثم ينتهي به الأمر إلى اللعثمة والهمس، ويتصبب وجهه عرقًا، خزيًا مما انتهى إليه أمره، بين يدي «معبوده».

أما إذا اتفق له جواب لائق أو عبارة سائغة، فما أسعده بهذا التوفيق الذي يملي له في الاستطراد، فلا يحار أين يخفي يديه، وإنما هو يسوي بهما رباط عنقه، ثم يثبتهما في جيبي صداره مزهوًّا بنفسه!

وقد يتمادى في هذه الأحوال في الثقة بنفسه، فيتجاسر على الوقوف والتمشي في الحجرة، ويمد يده إلى كتاب من كتب ابنه، فيقلب صفحاته متكلفًا الهدوء والاطمئنان، كأن بشاشة ولده هي القاعدة المألوفة، وكأن انطلاقه على سجيته في حجرة ولده عادة له جارية.

ولكني شهدت مبلغ ذعر الشيخ وقد نهاه ابنه ذات يوم عن لمس كتبه وأوراقه، فبادر إلى وضع الكتاب الذي كان بيده في مكانه، فوضعه لاضطرابه مقلوبًا، فتناوله مرة أخرى كي يصحح وضعه، فإذا به يضعه في هذه المرة وفتحته إلى الخارج! فأخجله هذا الخطأ الجديد، واحمر وجهه احمرارًا شديدًا، وحار في نفسه كيف يخفي جريمته.

فبهذا السلطان استطاع «بوكروفسكي» الشاب أن يقوم من اعوجاج أبيه الشيخ، وكان إذا رآه ثلاث مرات تباعًا صاحي الفؤاد غير ثمل أعطاه نصف روبل، أو اشترى له حذاء أو رباط عنق أو صدارًا.

وما كان أعظم فرح الشيخ بهذه العطايا، التي يتيه بها مزهوًّا، وقد يدخل حجرتنا ليرينا إياها، حاملًا إلينا شيئًا من الحلوى أو التفاح مما أفاء عليه ابنه ثمنه... وليتحدث إلينا عن مزايا ابنه ما شاء له الله أن يتحدث.

وكانت أمي -رحمها الله- تحب الشيخ وتعطف عليه كثيرًا، فكان الشيخ يأنس إليها.. أما «آنا فيودروفنا» فكان -لو أطاق- يولي منها فرارًا وقد امتلأ منها رعبًا، لولا أنه يخشى نقمتها وغضبها، فيظل بمحضرها ما أذنت له في البقاء صامتًا مطرقًا.

❊ ❊ ❊

برج الخفاء

لم تطاوعني نفسي على متابعة الدرس على يد بوكروفسكي، فقد تحليت أمامه بالرزانة والعقل، وحملت «ساشا» على الإقلاع عن ألاعيبها ومعابثاتها، حتى بات أستاذنا الشاب ناعم البال لا يعكر صفوه منا معكر، ولكنه ما فتئ ينظر إليَّ نظره إلى طفلة لم تبلغ الحلم، وكل ما طرأ عليها من تغير أنها كانت طفلة عابثة لاغية، فأضحت طفلة هادئة رزانًا وهي في حاليها لا تزال طفلة. ولم تُجْدِ معه محاولاتي الكثار في لفت نظره إلى ما أمتاز به على «ساشا» من صبا وسنٍّ تسلكني في عداد الشابات الأوانس.

ولكن هذه المحاولات لم يكن أمامها متسع غير ساعات الدرس، فما كنت أجد في نفسي جرأة على خطابه في غير تلك الساعات، فما ألمحه في البيت رائحًا أو جائيًا حتى يحمر وجهي ويجف حلقي، فيلتصق به لساني وتبرد أطرافي، فلا أنبس ببنت

شفة. فإذا فاتت فرصة السلام أو الكلام أسرعت إلى ركن قصيٍّ أنتبذه لأبكي فيه خيبتي وسوء حالي.

ولست أدري حتام كان هذا الحال قمينًا أن يدوم، لو لم تسنح فرصة من سوانح العناية فتكشف ما كان بيننا من حجب، وتقرب بين قلبينا على غير انتظار.

فقد كانت أمي ذات ليلة في حجرة «آنا فيودروفنا» لشأن لها أو لسمر، ولم يكن بوكروفسكي في البيت، فدخلت إلى حجرته متلصصة على أطراف أصابعي، وقد استولت عليَّ رغبة قاهرة لا عقل لها أن أستطلع خفاياها بنجوة من الرقباء. فقد كان يلقي علينا الدرس في حجرة ساشا، ولم أكن قد دخلت حجرته الخاصة على تقادم العهد على جيرتنا نيفًا وسنة.

وما إن دخلت من الباب حتى ألفيت قلبي يدق داخل ضلوعي دقًّا عنيفًا متداركًا، حتى لقد خشيت أن ينفطر أو ينشق... ولكن ذلك الوجيب لم يصرفني عن التطلع في فضول شديد إلى كل ما حولي، فإذا أثاث متواضع جدًّا، تزيد الفوضى الضاربة عليه من حقارته وضعته، فعلى المقاعد والمائدة أوراق مبعثرة، وعلى الأرض أوراق أخرى وكتب وأضابير. فقفز إلى خاطري شعور جد أليم غمر وجداني في تياره الطاغي، فقد قر في نفسي أن هذا الفتى لا يمكن أن يرى في صداقتي وحبي مقنعًا له وغنى عن كل حبٍّ وصداقة، فهو عالم واسع العلم والثقافة، بعيد مرمى الفكر

والقريحة، وأنا فتاة جاهلة أو في حكم الجاهلة، لا يكاد ما قرأته يستحق الذكر، فما أذكر أنني قرأت كتابًا برمته من الدفة إلى الدفة.

ووقفت وسط هذا الطوفان من الكتب أنقل بينه بصري، وأرمي بنظرات الحسد رفوف المكتبة التي تكاد تنوء بما تحمله من الأسفار الثقال.. ورأيت نفسي وقد تقسمها الأسى، والحسرة والغضب الجائح الذي يحفزني إلى العمل، أي عمل يخرج بي عن هذا الموقف الأليم.

وكان أول ما عنّ لي أن أقرأ هذه الكتب جميعًا، من أول كتاب فيها إلى آخر كتاب، لا أترك منها شيئًا ولا أفرط في شيء، في غير وناء ولا ترفق... فلعلني إذا أنا فرغت من قراءة كل ما قرأ، أكون كفئًا لحبه وصداقته.

وهجمت على أول رفٍّ من رفوف المكتبة، فتناولت أول كتاب فيه دون تدقيق أو رغبة في التحري والانتقاء، فإذا سِفْر قديم اصفرت أوراقه وعلاه الغبار، فحملته مضرجة الوجنتين خافقة القلب واجفة، وانطلقت به إلى حجرتنا وأنا أحسب أنني قد وقعت على كنوز قارون، وفي مرجوي أن أقرأه على ضوء «الذبالة الساهرة» إذا ما سجا الليل ونامت عين والدتي.

وفتحت الكتاب في حجرتنا قبل أن أضعه في الدولاب، فإذا شيء خاب له رجائي العظيم، فما كان ذلك الكتاب إلا مجموعة

نصوص لاتينية لا أفقه منها شيئًا، فأسرعت به إلى حجرة بوكروفسكي قبل فوات الأوان، وما هممت بوضع الكتاب حيث كان، حتى سمعت في الردهة وقع أقدام الشاب عائدًا إلى حجرته. وكانت الكتب الأخرى قد احتلت مكان الكتاب الذي أخرجته من بينها، فأسرعت في إفساح مكان له والخوف يهزني هزًّا شديدًا من أن يفاجئني بوكروفسكي متلبسة بالجريمة الدامية، فإذا بالمسمار الذي يمسك الرف إلى الجدار يتداعى، كأنه كان ينتظر هزة يدي أنا الشقية حتى ينوء بما كان يحمله زمانًا طويلًا دون كلال، فوقع الرف وتناثرت الكتب على الأرض.. فلو أن قنبلة انفجرت بين يدمي لما كان لها أهول من وقع هذه الأسفار وضجتها المكتومة.

وفي هذه اللحظة انفتح الباب، وبرز منه بوكروفسكي.. وكنت أعلم مبلغ حرص الشاب على كتبه، فالويل لكل من تحدثه نفسه أن يمسها بخير أو بشر. فناهيك إذَنْ بما استولى عليَّ من الفزع في تلك اللحظة، وقد تناثرت كل تلك الكتب، فأخذت تتراقص تحت المائدة والمقاعد، وفيها العماليق والأقزام، والأشياخ والأطفال والسمان والعجاف.

لقد وددت أن أولي الأدبار فرارًا من هذا الموقف الشديد، ولكن أين المفر؟ لات حين فرار! وحدثتني نفسي أن هذه الفعلة حرية أن تثبت في ذهن الشاب ظنه بي، أنني لست إلا طفلة لاغية

لاهية، تعبث بكل شيء متى أمنت عين الرقيب، فهي قاصرة الفعل خاسرة مفسدة!

وقد صح ما توقعت، فما إن مضت لحظة صمت كأنها الدهر أو ساعة من يوم الحشر، حتى انفجر مرجل غضبه وأنشأ يعنفني، ثم انحنى على الأرض ليجمع ما انتثر من كنزه الثمين، فانحنيت مثله أجمعها، فصاح بي في هياج شديد:

– إليك عنها... فلا تتعبي نفسك فيما لا ينبغي لك. وكان خيرًا لك قبل هذا ألا تدخلي مكانًا لم تؤذني في دخوله، ولم يَدْعُك إلى دخوله صاحبه!

فلما رأى خجلي وصمتي وتأثمي، خفَّتْ حدة غضبه، واستطرد بعد حين في لهجة أقل حدة وعنفًا:

– أما آن لك أن ترعوي؟ أما آن لك أن ترشدي وتتجنبي أفاعيل الصغار؟ ألم تحسي أنك قد عدوت طور الطفولة، فأنت الآن في الخامسة عشرة يا فتاة؟!

وكأنما أراد أن يستوثق من صوابه حين قال إني بلغت الخامسة عشرة، فرجع بصره في قامتي علوًّا وسفلًا، فإذا تلك النظرة تسكب في وجهه وأذنيه طوفانًا من دم الخجل والحياء!

ولم أدر لأول وهلة ماذا أصابه من هذه النظرة التي تفحصني بها وأنا واقفة أمامه فاغرة الفم أحملق فيه في دهش وارتباك مما فعلت،

فإذا به ينهض ويتقدم نحوي -ولا تزال حمرة الخجل تطل من أديم وجهه- فيتمتم ويبرجم كلامًا لم أفقه منه شيئًا، لعله يكون اعتذارًا عن حدته أو عن غفلته عن نماء عودي واستواء قدي حتى ذلك الأوان. ولكن نور الحقيقة غمر سريرتي على حين غرة فوعيت ما لم أَع من قبل، واحمر وجهي بأشد مما احمر به وجهه، حتى أطاش الحياء والخفر ما كان لي من جأش وبديهة، فغطيت وجهي بيدي وانطلقت أعدو هاربة إلى غرفتي.. هاربة منه، ومن نفسي، لو أن إلى الفرار من نفسي سبيلًا.

* * *

بارقة رجاءٍ

رباه! أين أخفي عنه وجهي وأستر عن عينيه عاري؟ لقد وجدني -أنا الآنسة الناضجة الصبا- في حجرته، وهو الشاب العزب، وتلك لعمري كبيرة الكبر.

ومضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها من غرفتي، حتى لا يراني بوكروفسكي، وكنت إذا سمعت خطوه خارجًا أو داخلًا غامت بالدمع عيناي لفرط ما يندفع إلى وجهي من الدم الدافق الحار، ثم أخذت تراودني أفكار أتأملها الآن فأجدها غريبة سخيفة مضحكة، ولكنها كانت وهي مستولية عليَّ تبدو لي وجيهة واجبة الأداء... فقد هممت أكثر من مرة أن أتوجه إلى غرفته لأشرح له حقيقة دوافعي لزيارة غرفته أثناء غيابه، فلا يذهب به الظن إلى ما لم يكن من همي ولا خطر لي على بال، فأي محنة لوجداني أن يحسبني طفلة تعبث بما ليس لها أن تمد يدها إليه، أنا التي ما أقدمت على هذه الفعلة إلا طمعًا في الارتفاع بمكانتي عنده.

وددت لو عرف الحقيقة حتى أكبر في عينيه، ولكن شجاعتي خانتني وقعدت بي عن تحقيق ما راودتني عليه نفسي.. إلى أن مرضت والدتي بعد بضعة أيام مرضًا شديدًا ألزمها فراشها يومين، فلما كانت الليلة الثالثة غشيتها الحمى حتى أسلمتها إلى الهذيان. وكنت قد سهرت إلى جوار فراشها الليلة السابقة فلم يغمض لي جفن؛ حرصًا مني على خدمتها وقضاء حوائجها وإعطائها الدواء في أوانه الموقوت، فلم أستطع في هذه الليلة مقاومة النعاس، ولم تطاوعني نفسي على الاستسلام له، فبقيت على مقعدي يتقاذفني الوسن واليقظة، ويكاد إعيائي الشديد ينتهي بي إلى الإغماء... فما أغفو برهة حتى يوقظني أنين أمي المدنفة، فأهب من نومي فزعة، وأفتح أجفاني الثقال لحظة، ثم يغلبني التعب والكرى، فأقفلها وأغوص في غيبوبة ما لها من قرار.

وطالت نوبة نعاسي آخر الأمر، ورأيت فيما يرى النائم حلمًا أقضّ نومي، فانتبهت مذعورة مبهورة الأنفاس، فإذا ذبالة المصباح تجود بأنفاسها الأخيرة، وقد خيمت الظلمة على الغرفة، فخيل إليَّ أنها امتداد محسوس لحلمي الفظيع، فقفزت من مكاني وأطلقت صرخة ندت عني دون أن أعي... فإذا بابنا يفتح في تلك اللحظة، وإذا «بوكروفسكي» يدخل منه.

ولست أذكر الآن من تلك الليلة إلا أنه كان يسندني بذراعه عندما استفقت من غشيتي وثبت إلى نفسي، فأجلسني في رقة

وعناية، وقدَّم لي قدحًا من الماء، ثم أخذ يمطرني وابلًا من الأسئلة. ولا أدري بما أجبته، فإنه تناول يدي في يديه وقال لي:

– أراك مريضة، مريضة جدًّا، فحرارتك مرتفعة... وأحسبك تنزلين بصحتك ضررًا محققًا بما ترهقين به نفسك من خدمة والدتك وتمريضها. فارقدي الآن واستسلمي للنوم، وسأوقظك بعد ساعتين.

فلما هممت بالاعتراض، قال في إلحاح المترفق:

– لا تتكلمي. استريحي وهدئي من ثائرة أعصابك المتوترة قليلًا؛ فهذا ألزم ما ينبغي لك الآن.

وكان الإعياء قد استنفد مقاومتي، فما سمعت كلماته تلك، حتى أقفلت أجفاني ونمت مضطجعة في مقعدي، وفي عزمي أن أستيقظ بعد ساعة أو أقل من ساعة... ولكني نمت حتى الصباح! فلم يوقظني بوكروفسكي الذي سهر على أمي تلك الليلة إلا حين آن أن أسقيها جرعة الدواء.

وأصبت في ذلك النهار قسطًا من الراحة؛ ليسعني أن أسهر في الليلة التالية على والدتي مصممة على مقاومة الوسن حتى مطلع النهار. ولكن ما سجا الليل حتى طرق بوكروفسكي باب غرفتنا، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة، ففتحت الباب، فإذا به يقول لي في لطف ورفق:

– لقد خطر لي أنك قد تسأمين الوحدة في سهرتك، فأتيتك برفيق أنيس، هو هذا الكتاب.

فتناولت الكتاب من يده وانصرف، ولست أذكر ماذا كان عنوان هذا الكتاب، ولا أحسبني فتحته، وإن كنت قد قضيت ليلتي تلك ساهرة لم أذق طعم الكرى؛ فقد كان ضميري مسرحًا لشعور غامض، ولكنه جياشٌ ذاد عني الوسن، وأبقى وعيي مركزًا في بؤرة مشاعري المضطربة الأمواج.

بيد أن ذلك الاضطراب الذي سهدني كان من العنف بحيث أقضى مجلسي، فلم أستطع التلبث في مقعدي على استقرار، فما أكثر ما قمت أتمشى في الحجرة على أطراف أصابعي.

ولكن حاشا أن يشتبه هذا القلق بما يورثه الحزن والهم من اضطراب وأسى.. كلا! فقلقي تلك الليلة قلق حلو، مرده إلى فيض السعادة التي امتلأت بها جوانحي حتى ضاقت عنها، فراحت تنشد لطاقتها الفائضة مخرجًا في الحركة، ولولا مرض أمي لتلمست متنفسًا لها في الغناء؛ فقد سرني اهتمام بوكروفسكي بشأني، ولمست قلبي «لفتته» حتى ملأتني زهوًا، وفتحت لي باب الأحلام الذهبية، فرحت أعب منها تلك الليلة ما وسع خيالي الخصيب أن يسعف روحي الظمأى بالأكواب المترعة بعد الأكواب من نبع تلك الأحلام ورحيقها المصفى.

وقد صمد خيالي لظمأ روحي، فظل ساهرًا معها يسقيها كؤوس الأحلام حتى مطلع النهار، فلم يطرق بوكروفسكي الباب طول الليل سائلًا أو متعللًا بالسؤال، وكنت أعلم أنه لن يفعل، ولكني كنت سعيدة، وكنت راضية بالانتظار إلى المساء التالي، واثقة أنه سيعود حينئذ إلى السؤال والعطف.

وجاء المساء التالي، ووقف بوكروفسكي بباب غرفته يعالج فتحه بمفتاحه، وكان باب حجرتي مفتوحًا فحياني، وسألني عن حال أمي وعن حالي. ولست أذكر عبارة واحدة مما تبادلنا من الحديث ليلتئذ، فقد كان الحياء يفتت أعصابي ويمزق أوصالي ويشل وعيي.. حتى لقد استعجلت نهاية هذا الحديث الذي بت ليلتي وقضيت سحابة نهاري أحلم بدنو ساعته!

أهذا هو الحب؟ ماذا فيه إذَنْ مما تصرخ أعماق النفس في طلبه وتشهيه؟

كلا! إنه ليس حلو المذاق، وليس كالشهد المصفى، ولكنه مع هذا منية القلب وطلبة الروح.

وليس من دليل على هذا أكبر من أن تلك الليلة بالذات كانت بداية صداقتنا الصريحة الصافية، فكان عيّنا وضيقنا واضطرابنا في الكلام بمثابة أوجاع المخاض التي ولدت تلك الصداقة الجميلة الطاهرة... وبتنا نقضي كل ليلة من ليالي مرض والدتي الطويل

بضع ساعات في صحبة ناعمة إلى جوار فراشها.

وتكفلت الليالي المتعاقبة بالقضاء على فيض حيائي، ومهدت أمام عقلي الطريق إلى رباطة الجأش والسلوك المتزن... وإن كنت قد بقيت على ما أعهده في نفسي من الشعور بالتخلف عن السمت اللائق.

وقد أثلج صدري أن أراه يهمل كتبه المعبودة لديه في سبيل الجلوس إليَّ والعناية بأمري وأمر أمي من أجلي... فتفتحت نفسي لصداقته وزادت ثقتي بها.

وفي ذات يوم جرنا الحديث إلى حادث المكتبة التي عبثت بها في حجرته حتى وقعت الكتب على أرضها، فإذا بموجة من الصراحة تجرفني في تيارها، فأصارحه بالحقيقة كاملة، ولا أكتمه أن دافعي إلى ذلك العمل هو رغبتي الملحة في تثقيف عقلي حتى تتغير نظرته إليَّ، فأعدو عنده طور الطفولة إلى مرحلة أنداده من الشباب.

وإنها لجرأة مني لا أدري كيف واتتني، ولكن صداقتنا كانت من الصفاء بحيث تقتلع الحواجز والأستار، ولا تبالي القيود والتقاليد والمواضعات... فاعترفت له بالحقيقة والدموع تتلألأ في عيني... وصارحته بما كان يعتلج في أعماقي من رغبة قوية في كسب مودته، بل في حبه ومزج حياتي بحياته.

وكان بوكروفسكي يصغي لي وهو مبهوت، فلم ينطق بكلمة، حتى خيل إليَّ أنه لم يفقه ما قلت له، أو أنه يسخر مني في طوايا سريرته... فسرت في نفسي موجة من الكآبة عاتية، وطفر الدمع من عيني، ثم أجهشت باكية، كما يبكي الأطفال في غير احتجاز... ثم انقلب البكاء إلى نشيج يتفزز منه جسدي كله وتختلج به جوارحي، فتناول راحتي بين راحتيه، ووضعها فوق صدره، ثم غمرها بقبلاته في رقة وحنان، وجعل يناجيني في صوت هادئ عطوف.

ولست أذكر الآن ماذا قال لي حينذاك، ولكني أذكر تمام الذكر أنني جعلت أبكي وأضحك وأنا أسمعه طورًا بعد طور، وأن الحمرة والاكفهرار كانا يختلفان على وجهي... وأن الحرارة والبرودة كانتا تصطرعان في أطرافي، وأن الكلمات هربت من فمي حتى لقد شككت في وجود لساني.

وهدَّأ من روعي وسكَّن من طائري أن بوكروفسكي جعل يبادلني ودًّا بود، واتقاد عاطفة باتقاد عاطفة، وانجاب عنه الذهول لما فوجئ به من عاطفة لم يكن يتوقع لها وجودًا في حنايا صدري، فسرت حرارة النشوة إلى كياني، وادفأت قلبي المقرور، وبت ناعمة بسعادة لم أذق من قبل لمثلها طعمًا. ولم أكتمه مبلغ سعادتي بحبه وقربه، فزادني هذا الاعتراف من قلبه قربى، فنمت محبته لي على الأيام، بل على الساعات، نماء متصلًا مطردًا.

وما كانت أحاديثنا في تلك الليالي الحلوة شيئًا مما يدون أو

يذكر، فهي سمر تافه الموضوع، ولكن النور الذي كان يدفئ قلبينا كان يشرق على تلك الأحاديث فنحسبها وضيئة مشرقة البيان.

لقد كانت تلك الأحاديث جدولًا رقراقًا يتدفق من نفسينا في غير تعمل أو تكلف. وفي ذلك التدفق الجميل الصافي سر عذوبتها وشجاها، وحسن جرسها وصداها، وطيب عرفها ورباها، فهي أصداء نفسين تتفتحان بعد طول احتباس، وتشرقان بعد ظلمة وطول تخبط والتماس... وما زالت تلك الأحاديث التي طوى عهدها الزمن الساطي نورًا لي -على ما تثيره من الألم عندي- كلما حزبني أمرٌ وتكاثرت عليَّ الأحزان.

* * *

وتماثلت أمي للشفاء، ولكني بقيت على عادة السهر بجوار فراشها، فكان بوكروفسكي يمدني بالكتب أقرؤها في سهري، فكنت أقرؤها أول الأمر ذودًا للنوم عن أجفاني، ثم صرت أقرؤها تشوقًا إلى المعرفة وتلهفًا على الاطلاع... فقد فتحت أمامي آفاقًا جديدةً لم أكن أحس لها من قبل وجودًا، وبت أرى وجداني يزداد على الأيام عمقًا واتساعًا وغنى.

فلما برئت أمي من علتها وغادرت فراشها، انتهت ليالي السهر والسمر، وأصبحت فرصة الحديث أمامنا لا تسنح إلا خلسًا قصارًا لا تنقع غلة ولا تشفي أوارًا... وإنما هو السلام وما يلحق بالسلام

من مبتذل الكلام.. بيد أني كنت أحس لتلك العبارات العابرة طعمًا غير طعم سائر الكلام؛ لأن الفقر في زاد حبنا الخارجي كان هينًا علينا بما في قلبينا من زاد لا ينفد، وما في نفسينا من غنى روحيٍّ وطمأنينة لا تقوى عليها زعازع الحرمان.

❊ ❊ ❊

عيد الحبيب

انقضت على هذا النسق جملة أسابيع، ثم حضر بوكروفسكي الأب لزيارتنا ذات صباح، وأخذ يجاذبنا أطراف الحديث، في جذل وخفة رشيقة لم نعهدهما فيه من قبل، فكانت لحديثه طلاوة فكهة أشاعت السرور في نفسه ونفسينا... ثم كشف لنا عن موضوع زيارته، فإذ عيد ميلاد «باتينكا» (وهو اسم التدليل لبوكروفسكي) يحل بعد أسبوع، وأنه ينوي أن يزور ولده في هذه المناسبة محتفلًا بها في هندامه وبزته أكبر احتفال مستطاع، فيرتدي صدارًا جديدًا، وينتعل حذاء وعدته زوجته أن تشتريه له... وقد استخفته هذه الأحلام الساذجة حتى لم يعد يستطيع كتمانها في صدره، فجاء إلينا لنشاركه في نشوتها لما يعرفه من مكانة ولده لدينا، أنا وأمي.

ولم يدر بخلد الرجل أنه أحدث في نفسي أثرًا عظيمًا بهذا الخبر، فلم يهدأ لي من بعده عيش لكثرة ما فكرت في هدية أهديها إليه؛ تذكره بصداقتي الراسخة العميقة الجذور في قلبي. ولم يهدني

التفكير إلى هدية أليق به من كتاب أو مجموعة كتب. وكنت أعرف أنه كان يشتهي اقتناء مجموعة بوشكين الشاعر كاملة في طبعتها الأخيرة، فعزمت على شرائها لتكون هديتي إليه. وكنت أدخر ثلاثين روبلًا؛ لأشتري بها لنفسي ثوبًا جديدًا، فأرسلت طاهيتنا العجوز «ماترينا» لتسأل عن ثمن مجموعة بوشكين الكاملة، فاتضح أن الأجزاء الأحد عشر لا يقل ثمنها مجلدة عن ستين روبلًا، فحرت كيف أدبر بقية هذا المبلغ، وكرهت أن أطلب من والدتي شيئًا؛ حتى لا يفتضح في البيت كله أمر الهدية قبل موعدها، وقد يساء فهمها فيظن أنها بمثابة أجر عن دروس عام كامل تلقيتها عليه مع «ساشا» وذلك أمر لم يجل لي بخاطر؛ لأنني لا أريد قضاء ذلك الدين، استبقاء ليده عليَّ، فالأيادي دين ثقيل، ولكنها إذا كانت ممن نحب كانت أعز ما يحرص الإنسان عليه وآنس ما يأنس إليه.

ووجدت لي مخرجًا آخر الأمر من هذا المأزق، فقد تذكرت أن من الوراقين من يبيع الكتب المستعملة، وفيها كتب تكاد تكون جديدة، بثمن بخس دراهم معدودات. فلما كان الغد خرجت لأشتري لأمي بعض حوائجها، ومررت بدكاكين أولئك الوراقين ومعي طاهيتنا «ماترينا».

وأسعدني الحظ فعثرت دون بحث طويل على مجموعة بوشكين مجلدة تجليدًا فاخرًا، فإذ به يطلب ثمنًا لها سبعين روبلًا، جعلت تتضاءل بالمساومة حتى هبطت إلى خمسة وثلاثين روبلًا،

تزيد على روبلاتي الثلاثين بمقدار خمسة روبلات، فحرت ماذا أفعل، وكدت أبكي قهرًا، والرجل لا يلين ولا يتزحزح... والطاهية العجوز تضرب كفًّا بكفٍّ لما ترى من جنتي المباغتة باقتناء الكتب.

وهممت أن أنصرف قانطة حسرى، لولا أنني رأيت في هذه اللحظة رجلًا لم يجل بخاطري أن أراه في ذلك المكان قط، هو بوكروفسكي الشيخ، ومن حوله خمسة وراقين يتنازعونه العروض وهو حائر لا يدري أيها يأخذ وأيها يدع... فما أحسبه يدري عن تلك السلع الأدبية شيئًا، فناديته، فخف إليَّ مسرورًا بلقائي، وقال لي إنه بسبيل شراء كتب يهديها إلى ولده في عيد ميلاده... وكانت ميزانية تلك الهدية لا تعدو ستة روبلات، فقنع لذلك بالسؤال عن قيمة الكتب الصغيرة الحجم، أما الكتب الضخام الجسام فلن يجرؤ على السؤال عنها، وإن ظل يرمقها بنظرات الحسد والكمد والاشتهاء! ثم رأيت دمعة تترقرق في عينيه وتنساب على خده المتغضن في صمت، فسحبته من يده وقلت له ما أنا بصدده، وطلبت منه روبلات خمسة أستكمل بها ثمن أعمال بوشكين الكاملة في أحد عشر جزءًا جميلة التجليد، لنقدمها هدية مشتركة بيننا إلى «باتينكا»، فكاد يجن جنون الرجل من شدة الفرح، وأدى المبلغ وحمل الكتب في خفة الشباب وانطلق بها إلى بيته، واعدًا أن يأتيني بها غدًا في الخفاء.

فلما كان الغد دخل علينا الشيخ، ثم همس في أذني أنه استودع الكتب «ماترينا» لتحفظها في المطبخ إلى الوقت المعلوم. ثم

أفاض في الحديث عن هديتنا وكيف نقدمها، وكأنه في تصوراته تلك مراهق يحلم بوصل عروس أحلامه اللعوب! فما أكثر ما راجع التفصيلات وعدل منها مرة بعد مرة، وأنا أصغي إليه صامتة مستمتعة بنشوته الأبوية الحانية... وإذا بذلك كله يتلاشى على حين غرة، لترتسم على معارف وجهه كآبة شديدة، وسكت لحظة ثم قال:

– اسمعي يا بربارا ألكسيفنا، خذي أنت عشرة أجزاء فقدميها إليه هدية منك مستقلة، أما أنا فسأقدم إليه الجزء الحادي عشر هدية مستقلة مني، وبذلك يهديه كل منا شيئًا على حدة.

– ولكن لماذا عدلت عن مشاركتي في هدية واحدة على الشيوع بيننا؟ أليس ذلك أجمل وأولى؟

– كلا يا بربارا، فأنا رجل كثيرًا ما أضل عن الطريق السوي فيلحاني «باتينكا» ويوبخني ويعظني، ولكني رجل ضعيف أمام الغواية، وقد تصطلح عليَّ الهموم مما تصبه امرأتي على رأسي، ويتآمر البرد مع الهموم فيدفعان بي إلى حان أراه في طريقي، وكأنه يفتح ذراعيه وينادي نداء حوريات الماء التي تفتن سامعها فلا يستطيع لها دفعًا، فأشرب حتى أثمل... فأحببت بتقديم هذا الجزء هدية مستقلة مني أن أقيم له الدليل على استقامتي، فلولا أنني ادخرت روبلاتي ولم أنفقها في حبائل الشيطان، لما استطعت تدبير ثمنها، وسيدرك باتينكا أنني ما فعلت ذلك إلا حبًّا له واستجلابًا لرضاه.

فشعرت بشفقة شديدة على هذا الشيخ المسكين الذي ردته شقوته إلى سذاجة الطفولة، وقلت له:

- قدم له أنت الأجزاء الأحد عشر جميعًا يا زكريا بتروفتش!

- كلها؟ كيف هذا؟ أأقدمها على أنها هدية مني أنا وحدي؟

- طبعًا.

فسكت لحظة، ثم قال في صوت كأنه صوت حالم ينطق وهو غاف:

- كم يكون ذلك جميلًا! ولكن ماذا تقدمين أنت يا بربارا؟

- يا زكريا بتروفتش، إن هديتي أن أراك سعيدًا بما أهديت إلى ولدك، وأن أرى ولدك سعيدًا بما أهداه أبوه. ويكفيني أن أسعد في قرارة نفسي بأن هذه السعادة التي غمرتكما قد قدمتها وصنعتها يدي في الخفاء!

فاقتنع بتلك الحجة، ومكث عندنا ساعتين لا يستقر في مكان من فرط الفرح والانتعاش، وكأنه طفل صغير وعده أبوه بنزهة في حديقة الحيوان، فهو يداعب ساشا وكأنه من لداتها، ويتغنى بما يعرفه من الأناشيد، ثم يميل فوقي فيقبلني خلسة، أو يقرص ذراعي. فما رأيت في حياتي أحدًا استخفه الفرح كما استخف ذلك الشيخ يومنا هذا.

فلما حل اليوم الموعود، حضر إلى بيتنا في تمام الحادية عشرة،

عقيب انتهاء الصلاة في الكنيسة، نظيف الهندام حسن الزينة. فدخل علينا وفي يديه لفافتان من الكتب، فوجدنا مجتمعين عند «آنا فيودروفنا» لاحتساء القهوة على عادتنا يوم الأحد، فبدأ بالكلام عن بوشكين، فذكر أنه شاعر من خير من نظم القوافي باللسان الروسي، ثم تلعثم وارتج عليه، فلم يدر كيف ينتقل من تلك المقدمة الأدبية إلى صلب خطبته، فترك محاولة التمهيد ودخل في الموضوع منوهًا بفضائل الاستقامة، وأن البغي يحيق بأهله، وضرب لذلك الأمثال مثنى وثلاث ورباع، ثم اختتم مقالته بأنه تاب وأناب وترك الضلالات والمفاسد منذ حين، واستجاب لرغبة ولده المحبوب، فصار من القوم الصالحين... فهو لا يحتسي الخمر ولا يتشهَّاها، فأفاء ذلك عليه صحة وطمأنينة نفس، وأفاده يسرًا في المال بعد عسرة، وأتاح له أن يهدي ولده الحبيب تلك المجلدات الحسان بما ادخره في زمن توبته الأخير.

وقد وجدت عناءً شديدًا، في مغالبة ضحكي أول الحديث، ثم في مغالبة دمعي في آخره، فما أبرعه في الكذب حين يقتضي الحال منه أن يكذب، ولكن باعث الكذب شعور جميل يلمس كل قلب للرحمة فيه موضع وللحنان عنده معنى.

وحمل الشيخ هديته إلى حجرة ولده، فوضعها على رف المكتبة، ثم دعوناه إلى الغداء معنا، فقبل الدعوة جذلان، وقضى معنا سحابة النهار في سعادة غمرتنا جميعًا بأشعتها الدافئة.

وأحسب بوكروفسكي قد أدرك الحقيقة لأول وهلة، فقد كان دائم اللطف والرعاية لي، وكانت في عينيه ومضات رقاق. وما أكثر ما تلمس الفرصة كي يحدثني على انفراد، ولكني كنت أفوت عليه ما يريد، رائغة منه روغان التدلل والانتشاء بأفاويق السعادة التي حفل بها يومنا الفريد كأنه الغرة في جبين الدهر.

لقد كان يومي ذاك أسعد أيامي في سنوات أربع من حياة طالما خيمت عليها ظلمة الشقاء.

❊ ❊ ❊

رياح الخريف

لقد سعدت سحابة نهار أقصى ما يسعد به أبناء الفناء. ولكن سعادات دنيانا «سحائب صيف عن قريب تقشع».

مضت أيام الهناء المشرقات، وحل وشيكًا شبح الكآبة الذي أراد الله أن يرين على أيامي بعد ذلك، حتى وقتنا هذا.

وكأنما استشعر القلم في يدي أنه لم يبق أمامه من كلام يسطره إلا ما يقطر حزنًا ويثير اللوعة والحسرات.. فغدا ثقيل الحركة، بطيء الخطو، كالمشفق مما سيخطه في صفحة القرطاس.

لقد هبت رياح الخريف الباردة الهوجاء فبددت دفء أيامي، وقوضت صروح أحلامي، كأنها بناء من الرمال، فإذا بها ذرات في قبضة الهواء، وهباء ضائع في خلاء.

وكانت فاتحة تلك الأحزان علة بوكروفسكي التي ألزمته الفراش حينًا، ثم أسكنته رمسه إلى يوم يبعثون.

فقد قضى بوكروفسكي أسابيع تباعًا يبحث عن عمل ثابت، فلم يجد إلا وظائف التدريس وأعمال الدواوين، وهي كلها مما لا تسمح له صحته الواهنة أن يزاولها.. فقد كان بوكروفسكي مصابًا بذات الصدر منذ سنوات.

وأضناه هذا البحث الدائب عن العمل، ولكنه لم يُلْقِ إلى ضعف صحته بالًا، حتى أقبل الخريف، وليس لديه ما يكفل له الدفء الواجب في روحاته وغدواته. وصار أيسر الماء يجد من نعليه الباليين منفذًا إلى قدميه.. وهو لا يكترث لشيء من هذا في سبيل الحصول على عمل وطيد.

له الله! لقد كان ذلك المصدور الشاب متعلقًا بالحياة، كبير الآمال في بقاء طويل.. ولكن الداء لم يترفق بآماله الكبار، فألزمه فراشه ذات يوم، فلم يبرحه بعد ذلك أبدًا إلا في صندوق مقفل، إلى حفرة في الثرى، في أخريات أكتوبر، ورياح الخريف الهوجاء تصفر في الأرض الخلاء، كأنها عزيف الجن أو أَنَّات ثاكل محزن.

لزم بوكروفسكي فراشه، ولزمت أنا جواره لا أبرحه مدة رقاده وضناه، فكم من ليلة قضيتها إلى جانب سريره ساهرة العين، مؤرقة الجفن، واجفة الفؤاد.

ولم يكن كامل الوعي في جميع أحواله، فما أكثر ما كان يهذي بكتبه وأوراقه، وبالعمل الذي ينشده فلا يعطاه، وبأبيه.. وبي أنا..

فعرفت من هذيانه ما لم أكن أعرف من خبايا حياته.

وكان من في البيت يرمونني أول الأمر بنظرات العجب والإنكار، ولكني لم أغض الطرف، فما كان فيما آتي شيء أخزى له أو أغضى، فتركوني وشأني وسلموا بحقي في السهر على هذا المريض المنكود.

وزادت وطأة العلة عليه يومًا بعد يوم، فصار لا يفيق من هذيانه ويثوب إلى رشده إلا لمامًا... فنهاره أنين، وليله فزع وهذر محموم، يناجي ربه أو يناجي نفسه، أو يتحسر على ما فاته من طلاب، أو يندم على ما فرط منه من هفوات الشباب. وهو في نجواه لا يستقر من رعدة، ولا يهدأ من تفزز، فكأنه لديغ مشرف على الهلاك. فكانت «آنا فيودروفنا» تضرع إلى الله أن يرفع عنه هذا العذاب، ويخلصه من نزعه الأليم فيضمه إليه.

ودعونا الطبيب ذات مساء، فقال إن المريض قد دنت نهايته، وإنه ملاقٍ قضاءه المحتوم زهاء الصباح من غد. فقضى بوكروفسكي الوالد الشيخ تلك الليلة قائمًا في الردهة أمام باب ولده المحتضر، وكان يدخل عليه في الحين بعد الحين ليلقي عليه نظرة جامدة.. فقد أذهل الجزع الشيخ وسلبه ذماء نشاطه وحيويته، فهو متبلد الحس كالمعتوه لا يحير قولًا، ولا يملك نفعًا ولا ضرًّا.. وإنما هو يسر إلى نفسه كلامًا لا معنى له ولا اتصال بين أطرافه.. حتى لقد خيل إليَّ أن الأب قد أصابته جنةٌ أو مسة خبال.

وقبيل الفجر غلب التعب جسد الشيخ، فنام على طريحة من الحشايا بُسطت له في الدهليز، فلما وافت الساعة الثامنة، وبدأت غبرة الموت تُسطو على محيا ولده أيقظته ليودعه الوداع الأخير.

وكان بوكروفسكي في تلك اليقظة التي يهبها الله للذاهبين إليه من عباده، فودعنا جميعًا فردًا فردًا.

فيا إلهي! ما كان أشقاني، وما كان أشد فجيعتي حتى لكأن نصالًا تعملها يد سفاح في شغاف قلبي.. ولكني مع هذا لم أجد في عيني قطرةَ دمع أذرفها، لعلها تطفئ بعض ما أجده من أوار الفراق.

وخانه لسانه بعد حين، فكان يحاول الكلام، فيلتوي عليه الكلام، فيشير بيديه فلا أفهم ما يريد، فجعلت أقرب منه كل شيء في الغرفة، وأدني منه كل إنسان في البيت، ولكنه كان يهز رأسه سلبًا.. حتى فهمت أخيرًا ما كان يعني.. ففتحت مصراعي النافذة، وأزحت عنها الستار.

فالشاب المسكين المتعلق بالحياة وما يمثله كل جميل فيها، كان يشتهي أن يلقي نظرة أخيرة على نور الشمس، والأفق البعيد، والسماء المشرقة بأضواء الصباح.

ولكن هيهات! إن الدهر أبى عليه حتى هذا المطلب الأخير، الزهيد.. فقد كانت السحب تغطي صفحة السماء، وكانت على الأرض عتمة قابضة، وفي الجو قتامٌ ينذر بالمطر، ويغري بالبكاء..

بكاء الناس، وبكاء السماء.

ورمقني الفتى المحروم بنظرة تقطر أسى واكتئابًا، وهز رأسه في إذعان وجيع.

ثم مات.

❊ ❊ ❊

عندما يموت الفقراء

مات بوكروفسكي في ضحوة النهار، فنشطت «آنا فيودروفنا» لتجهيزه، حتى تغادر جثته بيتها، فتتخلص من مصدر ضيقٍ لو بقي هناك لأقض مضجعها. ومن عساه كان يهتم بالفتى الفقير؟ أوالده المذهول المذهوب بلبه؟

وما كان تجهيزه أمرًا عسيرًا، فإن هو إلا تابوت بسيط من أرخص أنواع الخشب، وعربة نقل اكترتها بأرخص ما وسعها أن تكتريها. ولم تنسَ أن تتعوض عن هذه النفقات بالاستيلاء على كتب الفقيد وجميع ممتلكاته الشخصية، وما أهونها.

وقد اعترض الوالد المفجوع، فمخلفات ولده تذكاراتٌ مقدسة في نظره، ولكن اعتراضه لم يجده فتيلًا، لولا أنه ثار وأنشأ يصرخ، فخافت «آنا فيودروفنا» العاقبة، وتركت له من المجلدات ما تشبث به كالمجنون، فصار يملأ بها قبعته البالية، وجيوبه.

يا للأب المسكين! لقد احتفظ بتلك الكتب في جيوبه وفي قبعته ثلاثة أيام لا يفارقها، حتى وهو في الكنيسة.. وما أحسب نفسًا رأته يوم وفاة ولده إلا ذهبت حسرة على هذا الشيخ المرزوء، فقد كان يروح ويجيء في حركة لا تفتر، فاغر الفم، شارد النظرة كمن يسير في حلم، وله حول التابوت تطويف لا هدف له ولا غاية، فهو يحف بمثوى ولده لأنه لا يستطيع عنه حيالًا ولا زيالًا، ويسوي منه ما لا يحتاج إلى استواء، ويترفق بلمس خشب التابوت ويربت عليه كأنه يحس منه الملاينة والحدب.. أو يضيء الشموع ويقوم ما اعوج منها بفعل الحرارة، ويعيد ترتيبها حول التابوت كي تكون أتم زينة وأحسن نظامًا.. ولم يكن في الكنيسة أحد سوانا، فقد عاق المرض أمي عن الحضور، وأما «آنا فيودروفنا» فأحنقها شجارها مع بوكروفسكي الشيخ وأحفظها عليه فبقيت مع أمي، فكنا ثلاثة في الكنيسة بين يدي الله: الجسد الذي يُصلى عليه، والوالد الثاكل، وأنا.. فلما بدأت الصلاة الخافتة وأخذت أصداؤها ترن في الكنيسة الخالية غامت فجاج نفسي، ورانت عليها كآبة لا حد لها، كأنها نذر المستقبل القاتم الذي كان ينتظرني بضرباته الشداد وفواجعه التي تفتت الأكباد وتفري الأجلاد.. ولقيت عنتًا شديدًا في البقاء إلى نهاية الصلاة المبتسرة التي كانت كل ما لميت من الفقراء في ذمة خدام الله ورعاة عهد الناصري المولود في مزود بقرٍ، والذي عاش بلا مأوى حيث للطيور أوكارٌ وللضواري كهوفٌ وأوجارٌ.

فلما أحكموا على التابوت غطاءه، ودقوا فيه المسامير بدقات من المطرقة غير مترفقة بسكون البيعة وجلال الموت، حملوه إلى العربة، فانطلق بها السائق لا يلوي على شيء وصحبته راجلة إلى نهاية الشارع الصغير.

فما إن بلغنا هذا الموضع، حتى ساط السائق جياده، فغذت السير خببًا، وأخذت العربة تبتعد عنا، فجرى الوالد المفجوع وراءها ما طاوعته ساقاه الضعيفتان وهو يجأر بالبكاء بأعلى صوته، ونشيجه الثائر الحمم يترجع في صدره ويتقطع مع اهتزازات جسمه وهو يعدو.

وسقطت قبعته من فوق رأسه، فلم يتلبث ليستعيدها، بل تركها حيث هي على الأرض واستأنف الجري، ولعله لم يحس بسقوطها.. وبلل المطر المنهمر رأسه العاري، وأخذت الرياح القارسة العنيفة تهرأ وجهه.. فما أحس لذلك كله وقعًا، وهو يجري كالمجنون حافًّا بالعربة عن يمينٍ أو عن شمالٍ، باكيًا بلا احتجاز، والريح ترفع أطراف ثوبه وأذياله، فكأنها أجنحة سود بسطها ملك من ملائكة العذاب في وادي الحسرات من فجاج سقر.

وكانت الكتب تساقط من جيوبه وهو يجري، فلم يبق له منها إلا سِفر كان يتشبث به في يديه تشبثًا غير واع.. وكان هذا الموكب الصغير، أصغر مواكب الموتى وأبسطها وأفقرها على الإطلاق، كلما مر بأحد من الناس أثار اللوعة والأسى في قلبه، فرسم على صدره علامة الصليب.

وعند منحنى الطريق لقيت الموكب سائلة عجوز كانت تستندي الأكف، فما رأته حتى لحقت به وأنشأت تجري بجوار الشيخ وراء العربة المسرعة، التي لم تأخذ سائقها شفقة بهذا الأب الشيخ الذي هد العدو قواه، فالراحة والمجاملة سلعة لا يقوى على ثمنها الفقراء.. أما السائلة المعدمة فأدركت مبلغ ما مُنِيَ به هذا الفقير من الشقاء، فأسرعت تشاركه في ثمالة الكأس دون أن تعرف من هو.. وما جدوى من هو؟ لقد كفاها أنه مسكين، وأنه يتلقى الرزء الفادح وحيدًا في الحياة؛ لأنه مثلها.. إنسان فقير.

وغابت العربة عن نظري، فعدت إلى البيت وارتميت على صدر أمي، وقد استولى عليَّ يأس قاتل.. وأخذت أقبلها وأضمها إلى صدري ضمًّا عنيفًا، كأنما لأحس أنني لست وحدي، ثم وضعت رأسي على صدرها وبكيت بكاء طويلًا، وذراعاي حول عنقها.. كأنما لأصونها من الفقدان، وأمنع عنها يد العفاء التي انتزعت مني صديق روحي.

ولكن هيهات، هيهات! فإن ملك الموت الأسود كان يحوم حولها، وينتهز الفرصة المواتية للانقضاض..

رباه! ما أظلم أيامي!

عودٌ على بدءٍ

١١ يونيه

من لي بشكرك يا مقار ألكسيفتش على ما أتحت لي من الهناء بتلك الساعات التي قضيناها معًا متنزهين في أرباض المدينة، وعلى شطآن نهر النيفا بين الماء والهواء والخضرة اليانعة.. فما أبعد عهدي بتلك المناظر الحسان!

لقد خُيِّل لي أثناء مرضي أنني لن أرى الطريق مرة أخرى، فانظر كيف كان شعوري وأنا أنعم بالنزهة بين النور والزهر والماء النمير.. فلئن ذرفت دمعتين بين يديك أمس، فلا عليك، فما هما إلا من دموع الفرح الذي فاضت به جوانحي.. ومن الأسى أيضًا يا صديقي، فإن سكون الأصيل، وشمسه المائلة إلى الغروب، وهدوء الطبيعة الرحيبة الآفاق، قد أثارت في نفسي رواسب الأشجان، ولا يثير الأشجان والأحزان مثل نقائضها من الأفراح والمسرات.

تالله كم كنتَ كريمًا يا صديقي! فقد شملتني بحدبك وحنانك، وطفقت ترنو إلى عيني متعلقًا بهما، كأنما تريد أن تستشف مشاعري. وما كنت أبدي إعجابي بشجرة عتيقة أو جدول رقراق، أو طريق ملتو كالثعبان بين العشب المزهر، إلا امتلأت بإعجابي بها زهوًا، كأنها ملك يمينك، وكأنك رب الضيعة الذي يثلج صدره أن يطري الناس بستانه الموروث! ألا ما أطيب قلبك يا صديقي مقارا! إن طيبة قلبك خير ما فيك، وهي علة تعلقي بك وحبي لك.

والآن وداعًا يا صديقي، فقد تعبت من الكتابة.. فبالأمس ابتلت قدماي، وأصابني من ذلك برد يسير، أحس له اليوم في بدني هزة.. وفيدورا مريضة أيضًا.

لا تنسني يا صديقي، وتعال لزيارتي ما استطعت.

بربارا

١٢ يونيه

يمامتي العزيزة بربارا ألكسيفنا!

لقد توقعت أن تأتيني منك قصيدة عصماء في وصف نزهتنا الرائعة، فإذا صفحة قصيرة لا تنقع غلة الصادي.. ولكن عجبًا! لقد جمعت فيها فأوعيت، ولم تفتك شاردة من مناظر ذلك الريف الجميل. ولو حاولت ما حاولت لما كفتني صفحات وصفحات، وهيهات أن أبلغ ما بلغته في سطور معدودات.

وقد أثلج صدري ما أضفيته عليَّ من قلائد المديح، وما ذكرته من طيبة قلبي وصفاء نفسي.. وإني والله لكذلك!

وإني مجيبك الآن إلى ما سألتني مرارًا من قصة حياتي، فقد دخلت الخدمة في سن السابعة عشرة، وقضيت فيها حتى الآن ثلاثين سنة، أفدت فيها تجربة، ونضجت فيها سني ومشاعري. ولكن القدر سخر لي من تطوعوا للدس لي والتهوين من قدري، مستغلين طيبتي وحبي للعزلة والاعتكاف، فكل خطأٍ يقع من أحد يسندونه إليَّ ظلمًا، وهذه يا أختاه ضريبة الطيبة ومحبة السلام!

وكذلك بقيت كما كنت منذ ثلاثين سنة «نسَّاخًا»، وكل ما هناك أنني «نسَّاخٌ أول»، فخطي جميل، وجميع أوراق سعادة المدير أنا الذي أكتبها بيدي. وهو كما ترين عمل ليس ذا بال، وإن كنت أراه حسنًا غير مهين. ولكن الناس يلقبونني «بالفأر»؛ لأنني أعيش دائمًا بين الأوراق، وأدنيها من وجهي لضعف بصري.

لأكنْ إذَنْ فأرًا، فأي ضير في شبه الناس بالفئران، أليس الفأر مما خلق الله في الدنيا لحكمة يعلمها سبحانه؟

يؤسفني أنني اندفعت هذا الاندفاع في الحديث عن نفسي.. فعفوًا يا يمامتي، وعذري أنك مصدر عزائي الوحيد في الحياة، فإليك أتجه بأحزاني ملتمسًا سلوتي عند قلبك الكبير.

سأزورك قريبًا يا عزيزتي، وسأحمل إليكِ كتابًا تتسلين بقراءته، أما الآن فوداعًا.

صديقك المخلص

مقار ديوفشكين

٢٠ يونيه

عزيزي السيد مقار ألكسيفتش،

أكتب إليك على عجلة من أمري، فلديّ عمل يجب أن أنتهي منه اليوم. وقد سمعت من «فيدورا» بصفقة لم أحبب أن تفوتك بحال، فثمة كسوة موظف كاملة، في حالة جيدة جدًّا معروضة للبيع بثمن معقول للغاية.. فلا تقل إنك لا تملك شراءها، فقد قلت لي مرارًا إنك تدخر شيئًا للطوارئ. وليس الشح مستحبًّا يا صديقي إلى الدرجة التي تضن فيها على نفسك بزيٍّ لائق. ألا تنظر إلى صورتك في المرآة؟ ألا ترى كيف خلقت حلتك ونصل لونها، وصارت للرقع فيها صولة وجولة، حتى كاثرت في مساحتها نسيجها الأصيل! ولست أصدق أن لديك كسوة أخرى جديدة، وإن كنت تكرر على مسمعي هذا الزعم في كل مناسبة. فأتوسل إليك أن تشتري هذه الحلة يا صديقي، من أجل خاطري.

ثم ما هذا القماش الذي أهدتنيه؟ إنه قماش غالي الثمن ولا شك، وما أراك ألا تكلف نفسك رهقًا بما تغمرني به من الألطاف،

وما أكلفك في نزهتي وعلاجي.. وما كنت بحاجة إلى هذا القماش الفاخر في الوقت الحاضر. فلماذا اشتريته؟ إني واثقة أنك تحبني، وليس عندي في هذا شكٌّ، وإنه ليؤلمني أن تحسبني بحاجة إلى ما يذكرني حبك لي، فأتوسل إليك أن تكف عن هذه الخطة يا عزيزي مقار.

لقد طلبت مني أن أتم كتابة مذكراتي التي قرأت طرفًا منها، ولكني وجدت ذلك عسيرًا أليمًا، فما حدث لي بعد وفاة أمي شديد الوقع على نفسي، والجراح القريبة العهد وشيكًا ما تنتكئ، والنسيان -لو أطقته- مطلبي، فكيف أسعى إلى تجديدها بالذكر والتدوين؟

لقد حدثتك في آخر مقابلة لنا عن «آنا فيودروفنا» وما ترميني به من نكران جميلها وجحود أياديها، وتنكر ما أتهمها به من تواطئها مع السيد «بيكو» على الإيقاع بي بين براثنه. وتلح عليَّ أن أعود إلى الإقامة في بيتها، على وعد منها أن تحمل السيد بيكوف على إصلاح خطئه، بل جنايته التي جناها عليَّ أنا اليتيمة التي ليس لها في الحياة معينٌ.. فيهبني صداقًا طيبًا -كما وهب أم بوكروفسكي من قبل- كي أجد من يتزوجني طمعًا في ذلك الصداق!

ولكني أرفض هذا العرض، وأوثر البقاء حيث أنا الآن، ناعمة بصداقتك، وبصحبة «فيدورا» التي يذكرني ولاؤها مرضعتي العجوز، طيب الله ثراها.. ولليس لتقولات الناس عندي أدنى

اعتبار، فأنت قريبي -بعيدة ما بعدت صلة هذه القرابة- ولست أريد شيئًا سوى هدوء البال، وأن يدعني الناس وشأني آمنة في سربي.

بربارا

٢١ يونيه

يمامتي وأختي العزيزة!

لست أدري كيف أبدأ الكتابة إليك بما أريد أن أخوض فيه. ألا يروعك يا أختاه نمط معيشتنا الراهن، أنا وأنت؟ فما عرفت في طول حياتي أيامًا أسعد من أيامي هذه، حتى لكأن الله قد منّ عليَّ بأسرة هانئة وبيت سعيد.. فأنت يا فتاة طفلتي الصغيرة المحبوبة، ونور أيامي التي لم تعرف النور!

فأي عجب إذَنْ أن أبعث إليك شيئًا من قماش أعجبني، فاشتقت أن يكون عليك منه أربعة قمصان؟ ثم لماذا تزعمين أنك لست بحاجة إليه؟ لقد علمت من «فيدورا» أنك في مسيس الحاجة إلى قمصان، وما دمت ابنتي فأي شيء أحب إلى الأب المحب من قضاء حاجات فلذة كبده؟ فكيف إذَنْ تريدين حرماني من تذوق هذه اللذة البريئة أيتها القاسية؟

أتعلمين أنني أخذت أشعر أنني أعيش حياتين وأحيا مرتين؟ فأنت هناك، وأنا هنا في بيت يقابل بيتك.. فلي بيتان إذَنْ وروحان.. فأنت روحي يا بربارا لو تعلمين.

لقد سمعت منك مرة أنك بحاجة إلى حرير ملون للتطريز.. وغدًا سأشتري هذا الحرير، فأنا أعرف أين يباع.. ودمت لصديقك المخلص.

مقار ديوفشكين

٢٢ يونيه

عزيزتي بربارا ألكسيفنا،

لقد وقع يا صديقتي العزيزة في بيتنا حادث مفجع جدير بأعمق عواطف الأسى والرثاء، فقد اختطفت يد الموت في نحو الساعة الخامسة صباحًا طفلًا من أبناء مدام جورشكوف الثلاثة. ولا علم لي بما كان يشكو منه، فعلم ذلك عند الله وحده.. وقد زرت بهذه المناسبة غرفة جورشكوف وآله، فيا ألله يا أختاه! ذلك حقًّا هو الفقر الموجع والشقاء المهين! فالأسرة كلها تعيش في هذه الحجرة الضيقة، يفصل قسميها حاجز من قماش رقيق حفاظًا على مقتضى الحياء.. وكانوا قد دبروا أمر التابوت، فما رأيت أوجع للقلب من هذا التابوت البسيط، الذي أُعد لتُطوى فيه نفس بلغت العاشرة من سنوات هذه الدنيا، وبدأت تتفتح للحياة وتتطلع لأفاويقها، فنحيت الكأس عن شفتيها وحيل بينها وبين نور النهار!

كان هذا الغلام معقد آمال أبويه المسكينين، فقد كان ذكي الفؤاد، عطوف القلب وديعًا.. فانهار الأمل في مطلع هذا الصباح.

ولم تذرف الأم دمعة، ولا أطلقت صرخة، وإنما هو الوجوم الشديد، في مسكنة وقنوط.. وأحسب المسكينة لم تخرج من حسابها أن موت ولدها قد حل جانبًا من معضلتها اليومية الكبرى، وهي إطعام تلك الحواصل الزغب، حواصل بنيها الجياع.

أجل، لقد أقفل الموت فمًا من الأفواه الثلاثة.. ولكن بقي فمان اثنان، وما زال الإشكال قائمًا ملحًّا.. فأي عذاب يا إلهي يسامه هؤلاء الناس في كل يوم من أيام حياتهم النكراء، فليس أوجع للقلوب من رؤية طفل يبكي جوعًا، وهذا الطفل فلذة كبد المرء ولحمه ودمه، وهو لا يستطيع له شيئًا، ولا يدري كيف يرد عنه غائلة الوحش الذي ينهش أمعاءه الخاوية!

أما الأب الوالد، فكان قابعًا في مقعده في ثوبه الخلق، ودموعه تنساب على صفحة خده في صمت.. ولعل تلك الدموع لم تكن دموع الفجيعة، فقد طبعت الفاقة المذلة عينيه بطابع دامع على الدوام.

وأما ابنته التي لا تجاوز السادسة فكانت متكئة في وقفتها على التابوت، تنظر إلى أمام دون أن تنبس ببنت شفة.. وقد استغرقها تفكير حزين.

رباه! شد ما أكره أن يصمت الأطفال ويستغرقوا في التفكير قبل الأوان.. فما الطفولة إلا لعب وانطلاق، أما الكآبة يا إلهي ففظيع

جدًّا أن يُرمى بها الأطفال!

لقد عرضت عليها ربة الدار قطعة من الحلوى، فلفظتها في صمت وهدوء، كأنها شيخ فانٍ عافت نفسه طعوم الحياة وحلاوتها المشتهاة.

إن هذا فظيع.. فظيع جدًّا يا أختاه.

مقار ديوفشكين

❊ ❊ ❊

مفرق الطرق

٢٧ يونيه

عزيزي السيد مقار،

تؤكد لي فيدورا أن في وسعي أن أحصل على عمل طيب في أسرة فاضلة، أقوم على تربية أطفالها الصغار، فليس في عمل القهرمانة عارٌ. فما رأيك أنت يا صديقي؟ أأقدم أم أحجم؟

إن هذا العمل سيرفع عنك عبء كفالتي، وهو عبءٌ أراه ثقيلًا أود من كل قلبي لو تخففت منه. ولكن قلبي لا يطاوعني على الاطمئنان إلى الحياة في بيت غريب بين قوم غرباء... وأنا أخشى الغرباء، فأول ما سيعنون به سؤالي عن ماضي حياتي، وأنا لا أحب أن أكشف جراح قلبي لكل إنسان.. ثم أنت تعرفني نفورًا لا آنس إلى الناس في يسر، ولست أحب فراق من أنست إليهم، أو تبديل ما ألفته من نمط الحياة.. وإن إلى ما هو خير...

يضاف إلى ذلك أن هذه الأسرة تقطن حيًّا بعيدًا عن هنا، فأستشعر الوحشة لذلك البعد أيها الجار الصديق. وليس في ظروفهم ما يشجع على الثقة بهم، فقد استبدلوا بقهرمانتهم أخرى ثلاث مرات في سنتين، فقد يكونون من أهل الغطرسة أو الغلظة وسوء الطوية.

إني حائرة يا صاحبي، فأصدقني النصيحة. ثم لماذا انقطعت عن زيارتي؟ إني لم أعد أراك أو أجتمع بك إلا في قداس يوم الأحد، فيا لك من معتزل نفور! وإنك في هذا لصنوي.. ولكن تذكر أنك من ذوي قرباي، وإن شعوري بالوحدة يثقل على صدري. وأشد ما يكون ذلك الشعور في ساعات الغسق، عندما تخرج فيدورا لشراء ما يلزمنا من السوق، فإذا بخيالات الماضي ترود حولي، حتى ليخيل إليَّ أني أراها رأي العيان..

يا ألله ما أشقاني بهذه الرؤى! وإنها لتنال من صحتي وعافيتي أيما منال.. وها هو ذا السعال المقض قد انتابني كرة أخرى، حتى بت أشعر بدنو أجلي.

فمن يا ترى سيعني نفسه بتجهيزي؟ من الذي سينتقي لي التابوت، ومن الذي سيدرجني في أثوابي ويزينني للموت؟ ومن الذي سيسير خلف نعشي ويصحبني إلى مقري الأخير؟ ومن سيبكيني ليرطب ثراي بدمعه؟

هل كتب لي الله في أزلي علمه أن أموت في بيت غريب، بين قوم غرباء، فلا يقوم على رحلتي الأخيرة أحد، ولا يؤنس ليلتي الأخيرة في الدنيا مدمع حميم؟

ألا تعسًا للحياة؟

بربارا

٢٨ يونيه

أختي الصغيرة بربارا،

ما هذا الهذر الذي يبيض في رأسك الصغير ويفرخ، فيشقى له قلبك في غير مدعاة للجزع والعناء؟ وكيف سولت لك نفسك أن تتوهمي المرض الوبيل في عارض تافه؟ وما حدا بك إلى الاعتقاد بتداعي صحتك وذهاب عافيتك؟ إني أراك على العكس، ريانة كالزهرة المونقة، تنفح روحًا وريحانًا، وأرى للعافية في وجنتيك وأعطافك ماء يجري ويكاد يتفجر بالقوة والشباب.

ثم ما هذه الأحلام البشعة يا أختاه؟ اطرحيها من ذهنك، واقتدي بي في استدبار ما يحزن ويسبب تلك الكوابيس الثقال.

وما ذلك الحديث الذي تسوقينه عن العمل أجيرة في بيت قوم غرباء؟ إنه لرأي سقيم وتفكير غير مستقيم.. فأستحلفك ألا تفكري في شيء من هذا القبيل يا حياتي، فماذا أفعل من بعدكِ؟ إنني قمين أن أموت كمدًا، كما يموت السمك إذا أُخرج من الماء.

وماذا ينقصك في حياتك الراهنة؟ وأي شيء يسخطك عليها وينفرك منها؟ أبقي حيث أنت ناعمة البال، ولا تكلفي نفسك مشقة التفكير في شيء، وسآتيك بكتب تقطعين بقراءتها الوقت. وقد نخرج يومًا للنزهة في أرباض المدينة، كما خرجنا المرة السابقة، وسآتي لزيارتك قريبًا، ولكن على أن تعديني أولًا ألا تعودي إلى التفكير في هجر جواري إلى مكان مجهول بين قوم غرباء.

وإني لك على الدوام.

الصديق الوفي

مقار ديوفشكين

عزيزي مقار،

كلَّا يا صديقي، كلا! لم يبقَ لي بهذه الحياة طاقة ولا عندي عليها صبرٌ، فقد صح عندي أنني ارتكبتُ خطأً فادحًا حين رفضت العمل الذي أتيح لي بعيدًا عن هذا المحيط الذي نعيش فيه.. فقد كانت لذلك العمل مزية لا مرية فيها، فهو يضمن لي على أقل القليل لقمة تقيم أودي، وعيش كفاف لست أملك له اليوم ضمانًا بأي وجه من الوجوه... وكنت قمينة أن أروض نفسي على وحشة الغربة، وأن أحملها على ملاينة الناس ومداراتهم. ولعل هذا كان أجدى عليَّ من الانطواء السخيف على نفسي.

وهل تراني يا صديقي لا أشعر بما أكلف من يحبونني من

المشقة والنفقة؟ أأجهل أن «فيدورا» العجوز تنهض قبل مشرق الشمس كي تغسل ثيابي، وتخدمني، وأنا عاجزة عن خدمة نفسي بما يشغلني من التطريز أو بنوبات المرض؟ وهل أجهل أنك تحمّل نفسك ما لا تطيق من النفقات في سبيلي؟ وإذا كان لديك الآن شيء من المال لأنك كوفئت مكافأة استثنائية كما قلت لي، فماذا تراك فاعلًا حين ينضب ذلك المعين الموقوت... وأنا معتلة الصحة، لا تفرغ لي حاجة إلى دواء أو كساء؟

لقد آن لمرضعتي العجوز أن تستريح، وآن لك أنت أيضًا يا صديقي أن تستريح من هذا العناء... وليس لكما من سبيل إلى الخلاص سوى أن ألتحق بالعمل في بيت كريم.

فلماذا تصر على استبقائي؟ ما جدواي عليك يا صاحبي العزيز؟ ليس فيَّ لك نفع، فأنا لا أحسن إلا التعلق بقلبك النبيل، ولك عندي محبة لا مزيد عليها. ولكن أي طائل تحت هذا لك يا صديقي؟

فكّر في الأمر، ولا تبطئ عليَّ بقرارك الأخير.

المخلصة الودود

بربارا

أول يوليو

هذرٌ وهراءٌ ما تقولين يا ڤارينكا! ما هذه الخواطر السوداء النكراء التي عششت في رأسك يا أختاه؟

أنت جاهلة يا ڤارينكا بحياة الناس، وليست لك خبرة بما فيها من متاعب ومشاقٍّ... فأنت لا تفقهين معنى الإقامة بين قوم غرباء، لا يعنيهم أمرك، وإنما يعنيهم منك أمر أنفسهم. أما أنا فأعرف تلك الحياة يا ڤارينكا، فقد أكلت من خبز الغرباء، فوجدته علقمًا وصابًّا، ولم أجد فيه شبعًا من جوع، ولا راحة من تعب، ولا رحمة من عذاب!

ما الذي ينقصك يا عزيزتي في حياتك الراهنة حتى صرت تضيقين بها كل هذا الضيق؟ أهو ما تزعمين من ثقل عبئك على كاهل «فيدورا» وكاهلي، وإنه لا نفع فيك لنا؟

أأنت لا نفع فيك لنا؟ ولولاك لما كان لنا بحياتنا انتفاع.. فأي نفع لي أنا سوى أن أكون ذا نفع لك يا يمامتي الحبيبة؟

هذا هو السؤال الذي كان ينبغي أن تسألي نفسك إياه!

ألا ما أقساك يا ڤارينكا! أتراك تستعجلين ساعة يحملني فيها الحاملون على ظهري إلى مقبرة في ظاهر المدينة... فيرمي الناس وراء نعشي بحفنة من التراب في حفرتي الباردة، ثم يتركونني فيها وحيدًا، ويعودون إلى حياتهم دوني؟ لكأني بك بهجراني تستعجلين لي وحشة القبر أُفرد فيه ودوني جندل وصفائح... فحياتي من دونك يا ڤارينكا موحشة كالقبر، قاسية كالموت.

فأستحلفك بكل عزيز ومقدس يا ڤارينكا ألا تجرعيني هذه

الكأس، وأن تحولي عن شفتي مرارتها... فإنها أقسى من احتمال قلبي الكسير، الذي تركت فيه آثارها الأيام، وملأت صفحته بالندوب.

ارحمي تعلقي بك يا أملي الفريد، وارحمي نفسك أيضًا يا أختاه من قسوة الغرباء على قلبك الرقيق.

فإنك إن ترحمي قلبي، يرحمك الله ويجزينك خير ما يجزي أهل المروءة والإحسان.

صديقك المخلص الوداد

مقار ديوفشكين

عزيزي السيد مقار،

لقد باعت «فيدورا» الحرير الذي طرزته بيدي بخمسة عشر روبلًا، أعطتها منها ثلاثة ففرحت بها فرحًا عظيمًا.

وإني أكتب إليك على عجل؛ لأنني أريد أن أحيك لك صدارًا من نسيج جميل أصفر اللون فيه زركشة صغيرة بيضاء تمثل أفانين من الزهر، سيعجبك كثيرًا.

أرسل إليك مع هذه الرقعة كتابًا فيه مجموعة من القصص، أوصيك أن تقرأ منها على الخصوص قصة المعطف للكاتب «جوجول».

ألا تزال مصرًّا على اصطحابي إلى مسرح التمثيل؟ أليس هذا بذخًا باهظ التكاليف؟ إن فيدورا تردد على سمعي في الأيام الأخيرة أنك تنفق أكثر من دخلك، وهذا رأيي أيضًا، فما أكثر ما أنفقت عليَّ في غير موجب.. فاحذر يا عزيزي أن يصيبك من ذلك البسط في النفقة ما يضيرك.

لقد نقلت إليَّ فيدورا ما تناهى إلى سمعها من خلاف نشب بينك وبين ربة الدار، لتأخرك في سداد أجر سكنك... فأقلقني هذا الخبر، وعسى ألا يكون صحيحًا.

وداعًا يا صديقي.. وليتك ترجع عن دعوتي إلى مشاهدة التمثيل.

بربارا

ملحوظة: لقد خطر لي خاطرٌ أحببت أن أستطلع رأيك فيه: ألا يكون جميلًا أن أرتدي -إذا ذهبت معك إلى مسرح التمثيل- قبعتي الجديدة، وشالي الأسود؟ أترى ذلك يزينني؟

٧ يوليو

عزيزتي بربارا،

... أصل ما انقطع من حديثي إليك بالأمس.

أجل يا أختاه، لقد عرفت فيما مضى من أيام شبابي ما تنطوي عليه كلمة النزق أو الضلالة من معنى، حين أغرمت بتلك الممثلة

الفاتنة. وقد لا يكون هذا وحده دليلًا على خبالي وسوء رأيي... وإنما الدليل على ذلك أكبر الدليل هو أنني لم أر هذه الممثلة قبل افتتاني بها إلا مرة واحدة، وهي على خشبة المسرح.

وأنكى من هذا أنني أحببتها حتى قبل أن أراها تلك المرة الفذة. فقد كنت أساكن خمسة شبان من الطلاب المتهوسين، لم تكن تفوتهم رواية من رواياتها، فإذا عادوا إلى البيت آخر الليل لم يتركوا لي فرصة للنوم؛ لكثرة ما يتحدثون في حماسة عن معبودتهم الحسناء. فكلهم كان عاشقًا مدنفًا على البعد بها، فالحب كخلائق الناس جميعًا يعدي، فانتقل حبها إلى قلبي الخلي. وذهبت معهم إلى مسرحها ذات ليلة، فخرجت متيمًا لا أملك مقاد لُبِّي... فقد كان صوتها عذب الجرس صافيًا كأنه غناء البلبل، وعدت إلى مثواي وكأنني أعيش في حلم.

وتحسست جيوبي جميعًا واحدًا واحدًا، فلم أعثر فيها إلا على روبل من فضة، هو كل ما أملك إلى أن أقبض راتبي بعد عشرة أيام طوال. فما تظنينني قد فعلت بذلك الروبل الفرد؟ لقد بكرت من غدي إلى حانوت للعطور الباريسية، فاشتريت لها عطرًا وصابونًا معطرًا، ورحت أذرع الطريق تحت نوافذ بيت معبودتي الغافلة.

وإني لأعجب من نفسي اليوم! لماذا اشتريت ذلك العطر، وذلك الصابون؟ فلم أجترئ على إهدائهما إلى معشوقتي... ولكن كل ما أعلمه أني بقيت شهرًا ونصف شهر لا أمارس شيئًا من مهام

الحياة وأمورها سوى تعقبها أينما ذهبت في عربة أكتريها، حتى ساءت أحوالي.

وأخيرًا يا يمامتي، وبغير مقدمات، طار حبها عن قلبي ذات صباح، كما حط عليه من قبل ذات مساء... وارتفع عني ما كان يرهقني من سحر الساحرة الحسناء.

وهذا يا عزيزتي ما ترديت فيه يومًا من الرعونة، ولكن هذا عهد مضى يا أختاه، مع ما مضى من أيام الشباب.

مقار ديوفشكين

❊ ❊ ❊

نزعازع الأنواء

٢٧ يوليو

عزيزي السيد مقار،

لم تعد براهينك تقنعني يا صديقي، وبت أراني مخطئة في رفض ما عرض عليَّ من أعمال شريفة... ولا سيما بعد أن أصبحت تتعلل لانقطاعك عني بأن طبيعة حبك لي تفرض عليك تلك القطيعة... وإنما هو خوفك أن أتبين الحقيقة وما صرت إليه من ضيقٍ شديد.

لقد زعمت لي أنك تنفق عليَّ في مرضي وحوائجي من فيض مالٍ كنت تدخره، فإذا أنت لم تكن ذا مال مدخر، وإنما دفعك عطفك وحنانك أن تقتر على نفسك كل التقتير في سبيل رفاهتي، وأن ما زعمته مالًا مدخرًا كان مرتبك وقد تقاضيته عدة شهور سلفًا، فأنت الآن ولا مورد لك على الإطلاق.

وقد تحققت أنك بعت كسوتك الرسمية أثناء مرضي لتدفع

ثمن دوائي، فبت خلق الثياب، تطل أصابع قدميك من حذائك، فأزريت بنفسك، وجوعتها في سبيل استبقائي ونعمائي.

إلا أنك قد خنت عهد صداقتنا بهذا الخداع الفاضح! إن ذكرى ما استهلكت من هداياك من الحلوى والثياب والنزهات والدواء تنوش قلبي ندمًا على ما كلفتك من ضرورات الحياة.. والمسرات التي طالما أثلجت بها صدري، قد انقلبت مدعاة للغم والأسف.

أفهل هبطت إلى هذا الدرك من الزراية بنفسك يا مقار، وأنت الرجل الفاضل الذي أجمع الكافة على توقيره؟ أهكذا تجعل من نفسك هزأة العالمين؟

ألا ما أهول ما جرته عليك صداقتي الرعناء! وكيف أغفر لنفسي ما سببته لك من سوء المنقلب؟

ألك يدٌ بتصور ما انتابني من الألم الشديد حين قالت لي فيدورا أن الشرطة عثروا بك ثملًا مطروحًا في الشارع في الهزيع الأخير من الليل؟

لقد أصابني الذهول لأول وهلة، وإن كنت قد توقعت أمرًا خارقًا؛ لأنك تغيبت عن بيتك أربعة أيام سويًّا.. ولكني لم أكن أتوقع أن تعثر بك الشرطة مخمورًا، وأنت رجل الفضل والنبل والاستقامة التي تضرب بها الأمثال.

ماذا عسى أن يقول رؤساؤك لو عرفوا هذا الأمر؟ وهلَّا تذكرت

ما طالما كررته على سمعي من شيوع أمر صداقتنا على ألسنة جيرانك أجمعين، حتى سخروا من غرام كهل في سنك بفتاة مثلي؟ ماذا عساهم إذَنْ قائلين بعد هذا الذي حدث لك؟

ثم ما حكاية شجارك مع الضباط؟ ولماذا تكتم عني ما يحدث لك ويحزنك من الأمور؟

اكتب إليَّ يا صديقي ولا تضن عليَّ بشيء من أخبارك إذا كنت لا تزال تقدر صداقة.

المخلصة لك على الدوام

بربارا

٢٨ يوليو

عزيزتي الغالية بربارا،

أما وقد عاد كل شيء إلى نصابه الآن، فلست أرى ما يمنعني من مصارحتك بما كنت أخفي عنك.

لقد تساءلت عما يخوض فيه الناس من شأننا، ومن شأني أنا على الخصوص، وقد رأوا تغير حالي... فاعلمي إذَنْ أن قالة الناس في شخصي لا تهمني، وإن رؤسائي في الديوان لا علم لهم بشيء... فلا يكربني الآن إلا تخرص الناس عن صداقتنا، والخوض فيها بما ليس منها.

لقد كانت ربة البيت لا تكف عن الصياح والصخب، حتى

أديت إليها جزءًا من متأخر الكراء -هو تلك الروبلات العشرة التي بعثت بها إليَّ مشكورة- فخفت صوتها حتى صار زمجرة مكتومة لا آبه لها كثيرًا.

وأما جيراني فلا يتعرضون لي بسوء... وليس يهمني ألا يحترموني، فتقديرك أنت هو كل ما أحرص عليه يا عزيزتي!

ولست أكتمك أن ديوني الكثيرة تثقل عليَّ صدري، وأن رثاثة ثيابي تخزيني... ولكن هذا كله ليس شيئًا مذكورًا، ما دمت أنت بخير، ولعل الله يحدث لنا فرجًا.

لقد بعثت إليَّ أمس بنصف روبل.. فما أشد ما آلمني هذا النصف روبل وحز في قلبي... هل صرت حقًّا إلى هذا الموقف النكد؟ هل انقلبت الآية شر منقلب، حتى بت أنا الذي أتلقى منك العون، لا الذي يقدمه إليك كما ينبغي للولي الحميم؟

وداعًا يا يمامتي.. وأتم الله عليك العافية، وسأحدثك في خطاب آخر عما وقع لي مع الضباط.

مقار ديوفشكين

٢٨ يوليو

أختي ڤارينكا،

لقد أثرت كوامن أشجاني بما قلت لي أيتها الأخت عن حقي في حبك، وأن ذلك الحب ليس من الرعونة والخبال في شيء. وهو

كلام جميل.. ولكنه محض كلام.. أما قلبك يا ڤارينكا فما أراه يقول ما ينطق به لسانك، وإني من هذا على يقين.

وقد كان هذا الحب الذي أغالبه سببًا في كل ما وقع بيني وبين الضباط من مهازل لا أحب ذكرها، لولا إلحاحك في السؤال.

تعلمين يا ڤارينكا أني سلخت شهرًا لا أجد ما أعيش به، فكنت أتسلل إلى البيت تسللًا وأخفي وجهي عنك متعللًا بكثرة العمل، ولولا أن ربة البيت تربصت بي وفضحتني لما علمت الحقيقة.

وما كان صياحها ليزعجني، لو لم تعرف المرأة السليطة -ولا أدري كيف عرفت- أن بيني وبينك صداقة ومودة، فراحت تندد بنا، وتنعتك على ملأ السكَّان بأقبح النعوت.. حتى استولى عليَّ الذهول لما سمعت، ورحت أصم أذني بأصابعي فزعًا واستنكارًا.. ولكن سائر السكَّان لم يصموا آذانهم بأيديهم كما فعلت... بل فتحوها وأرهفوها إرهافًا شديدًا لتلقي تلك الأراجيف، حتى بت لا أدري أين أخفي وجهي عن هؤلاء الناس الذين صدقوا، لسوء دخيلتهم، ما قيل لهم.

وزاد الطين بلةً أنني سمعت بعد ذلك من «فيدورا» أن شخصًا لا خلاق له زار حجرتك وأساء إلى كرامتك وحيائك بما سولت له نفسه أن يطلبه إليك ويساومك فيه.. وإني لمدرك يا عزيزتي مدى ما ألمت له بسبب تلك الإهانة التي مست سويداءك... فكان ذلك

النبأ هو القشة التي قصمت ظهر البعير... فتداعت مقاومتي تحت عبء الأحزان، فإن كل شيء كان هينًا عندي، إلا أن يمسك سوء من قريب أو بعيد.

وكأنما اصطلحت الطبيعة مع الناس على توهين عزيمتي... فأمطرت السماء وانتشرت الوحول في كل موضع، ونفذ الماء من ثوبي الخلق وحذائي البالي.

وفيما كنتُ متجهًا إلى البيت في تثاقل وانقباض، قابلني «إميل» الموظف السابق في ديواننا، فمشينا نتناقل أخبار متاعبنا برهة، فهو رجل مسكين لا مورد له بعد فصله من الخدمة، وفي شقائه صدى لشقائي العظيم في ذلك اليوم.

وانتهى بنا المطاف إلى حانة وماخور.

ولكن أي أرب لك في الاطلاع على صورة مفصلة للأوزار والحمآت التي تمرغ فيها صديقك المسكين في ساعة ضيق وضعف.

لقد دامت هذه الخطيئة ثلاثة أيام سويًّا، دفعني إميل في نهايتها -وكنا نتذاكر همومنا بين كؤوس الخمر- إلى الانتقام مما لحق بي من إهانتك والإساءة إليك وإلى شرفك، فاندفعت تحت سورة الخُمار إلى بيت ذلك الضابط السفيه.

ولست أذكر الآن شيئًا مما حدث على وجه التفصيل، ولكني

أذكر فقط أن البيت كان غاصًّا بالناس، ومعظمهم من الضباط، وأنني اندفعت في الكلام طويلًا، إلى أن ألقوا بي من أعلى الدرج، فتدحرجت، حتى بلغت أرض الشارع.. وعلى هذه الحال عثرت عليَّ الشرطة.

ولكني لم أكترث لهذا الذي وقع لي؛ لأن شيئًا في الحياة لا يهمني بعد راحتك وسلامتك من السوء، ومن ألسنة السوء.

فإذا كنتُ قد أثمتُ يا صاحبتي، فبسببك، وبسبب حبي لك وتعلقي بشخصك الحبيب، وحرصي على كمال احترامك، وصيانة كرامتك بسياج متين.

وليّك الحميم

مقار ديوفشكين

٢٩ يوليو

سيدي العزيز،

قرأت خطابيك اللذين كتبتهما إليَّ أمس.. فاستولت عليَّ دهشة شديدة، فإما أن تكون قد كتمتني جانبًا كبيرًا من الحقيقة، وإما أن يكون اضطرابك النفسي أعنف كثيرًا مما قدرت.

فأتوسل إليك أن تحضر لزيارتي اليوم... تعال لنتغدى معًا في غير تكلف، فإن لي معك حديثًا طويلًا، ولا سيما عن نمط حياتك وعلاقتك بربة البيت، وهي أمور لا تخوض فيها فيما تكتب إليَّ من

الرسائل.. كأنما تريد أن تتجنب ذكرها عمدًا.

وداعًا يا صديقي، واعلم أنه لا بد من حضورك على كل حال، ولعل الأوفق أن تتغدى معنا كل يوم، ففيدورا طاهية ماهرة.

بربارا

أول أغسطس

أختي بربارا العزيزة،

أراك سعيدة بما هيأته لك الفرصة السانحة من إظهار ما تنطوي عليه جوانحك من عرفان الجميل والعطف الكريم، ولكن لا أدري لماذا تلحين في نبش هفواتي التي انحدرت إليها في الماضي؟

لقد هفوت وأثمت، بيد أني أتألم كثيرًا حينما أسمع ذلك من بين شفتيك أنت من دون الناس جميعًا... وأرجو ألا تغضبي لهذا الذي أقول لك، فإن قلبي يتمزق ألمًا، والفقراء يا يمامتي قوم فيهم حساسية شديدة لما يمس كبرياءهم المرهفة... وفيهم حذر وسوء ظنٍّ بالدنيا والناس. فالرجل منهم يصيخ السمع كلما رأى قومًا يتهامسون، خشية أن يكون موضوع همسهم وتغامزهم. إذا جاد عليه الناس بشيء من المال، أجازوا لأنفسهم أن يتطفلوا على حياته الخاصة، فليس ما يعطونه صدقة خالصة في الواقع، وإنما هو أجر «الفرجة» على رجل فقير من عباد الله المساكين.

فهل تعجبين بعد هذا يا أختاه لما يداخل الفقير منا من التوجس

والارتياب وسوء الظن بالناس؟ فهو يحس كما لو كان أولئك المتخمون يهمون بتعرية جسده من كل ما يستره... فهل يلام على تمسكه بالحياء، وبستر ما أمر الله أن يستر؟

ألا إن خلات الناس وآلامهم عورات لا يحل لأحد أن يطلع عليها... وقد ظهرت سوأتي اليوم للناس، فكدت أموت خجلًا... لقد تبينت أن كوعي كان يطل من كم سترتي البالي وأنا جالس إلى مكتبي في الديوان... وأن أزرارها كانت تتراقص مدلاة من خيوطها الواهية التي لا تكاد تمسكها.

فلما عدت من الديوان، وقصدت إلى بيتك للغداء، رأيت جميع سكَّان بيتنا في النافذة، يشيرون إليَّ بأصابعهم هازئين، وسمعت صاحبة البيت تنعتك بأعلى صوتها نعتًا بذيئًا.. ووصمتني بالشيطان الذي يغري فتاة، ويدنس شرفها في سبيل متاع شيخوخته الفانية.. فجعلت الدنيا تدور من حولي، كأنما أعاني سكرات الحمى، وقد أعيتني الحيلة للخلاص من هذا المأزق.

رباه! أين أين المفر؟!

لقد ضقتُ ذرعًا بكل شيء، وكفرت بكل شيء، ولست أرى لي مخرجًا من هذا البلاء الشديد!

مقار ديوفشكين

٢ أغسطس

عزيزي السيد مقار،

لا يحزبنك الأمر يا صاحبي، فما عقدة إلا ولها فرجة مثل حل العقال... وقد وفقت فيدورا إلى كمية من الأعمال لي ولها، سيأتينا منها أجر حسن، عسى أن يقضي على كل أثر لضائقتنا الخانقة.

لا تلق بالًا إلى تخرصات ربة الدار، وتعال لزيارتنا وتناول الطعام معنا، فهو أجدى لك وأقصد لنفقتك، والقصد أولى من القرض؛ لأن القرض تأجيل بلاء وليس حسم داء.

وأوصيك ألا تسترسل في سوء الظن وتوهم المكائد والشماتة، فإن ذلك الوهم خليق أن يزيد نفسك اضطرابًا، من حيث تنشد الأمن والسكينة.

إني أنتظر حضورك اليوم، فلا تتخلف.

باربارا

٣ أغسطس

ملاكي الرقيق بربارا،

أبادر بأن أزف إليك يا نور حياتي بشرى بارقة من الأمل، تراءت لي، وإن كنت قد نصحتني في خطابك أمس ألا ألجأ إلى القروض؛ لأنها في رأيك يا ملاكي دائرة خبيثة مفرغة لا تحل المعضلات،

وإنما هي تؤجلها لتزيدها تعقيدًا واستعصاء.

إن لي زميلًا في الديوان، يجاور مكتبه مكتبي، اسمه «إميليان إيفانوفتش» وهو مثلي من أقدم موظفي الديوان، ولكني كما تعلمين رجل منطوٍ على نفسي، فلم تزد العلائق بيننا على تبادل التحية والسلام، وقد أقول له في الحين بعد الحين:

- أعطني مبراتك يا عزيزي متفضلًا مشكورًا.

فلديه مبراةٌ من الصلب ليس كمثلها مبراة... ولكن الصلة بيننا في ثلاثين سنة لم تزد يومًا على هذه المجاملات الرسمية، وإن كنت أشعر في قرارة نفسي أنه يضمر لي الخير. وبالأمس قرأ في وجهي علائم الهم والكدر فسألني ما بي، فقلت له أسباب ضيقي، إجمالًا لا تفصيلًا بطبيعة الحال؛ لأن الشجاعة لم تواتني على مصارحته بكل متاعبي الباهظة، فقال لي إميليان:

- لماذا إذَنْ لا تعقد قرضًا تصلح به شأنك؟ إن «بيير بتروفتش» يقرضني بفائدة معقولة، فالجأ إليه، فهو رجل طيب.

فقلت في نفسي: لعل هذا بشير الخلاص من ضيقي الراهن، فأسدد ديني لربة البيت، وأقدم لك شيئًا من المعونة، وأجدد ما خلق من ثيابي.. فقد صار ملبسي مدعاة للخزي المقيم... فإذا غضضت الطرف عن نكات الرقعاء من الموظفين ولواذع تعريضاتهم وغمزهم، فما يسعني أن أغض الطرف عن مدير الديوان... فقد يمر

سعادته بمكتبي ويرى سوء مظهري الذي لا يليق بكرامة مركزي في الدولة، والكرامة ولياقة السمت أهم شيء في منظر مثل هؤلاء الرؤساء العظام... ولا أحسبه سيقول شيئًا، ولكنني خليق أن أموت خجلًا تحت وقع نظراته الناطقة بالاشمئزاز والاستياء.

وكان هذا الخاطر وحده كافيًا للقضاء على كل تردد، فجمعت شجاعتي في يدي، وتوجهت إلى مكتب «بيير بتروفتش» فوجدته مشغولًا بالحديث مع شخص آخر، فاقتربت منه ووقفت إلى جواره من الجانب الآخر، وجذبت طرف كمه في لطف، فالتفت نحوي، فقلت له همسًا إنني بحاجة إلى ثلاثين روبلًا، ويبدو أنه لم يفهم مرادي لأول وهلة، فشرحت له الأمر، فأنشأ يضحك، ولم يجبني بشيء... فلما رأيت سكوته وصمته بعد أن ضحك ما شاء الله أن يضحك أعدت عليه الطلب، فقال لي:

- ألديك رهن عينيٌّ؟

ثم «غاص» في أوراقه وكتاباته دون أن ينتظر مني جوابًا عن سؤاله، غير ملق إليَّ نظره، فاضطربت وتضاءلت بعض الاضطراب وبعض التضاؤل، وقلت بصوت مختلج:

- كلَّا يا بيير بتروفتش، ليس عندي رهن.

ثم أخذت أؤكد له أنني سأفي بديني متى قبضت مرتبي، مقسمًا على ذلك بأغلظ الأيمان.

وناداه مناد في هذه اللحظة فخرج، وانتظرت حتى عاد إلى مكتبه، فجلس وانصرف إلى بري قلمه بعناية، وكأنه لا يحس لي وجودًا، فأعدت الكرة عليه في توسل، فتصامم عن كلامي، وكأني لم أقل شيئًا، فبقيت واقفًا بين يديه لحظة لا أدري ماذا أصنع، ثم عولت على إعادة المحاولة على يأس من الفلاح، فجذبت كمه مرة أخرى، فلم يلتفت إليَّ، وانصرف إلى الكتابة بعد أن نفخ آثار بري القلم عن أصابعه وثيابه، فانصرفت، وما كان لي إلا أن أنصرف بعد هذا الذي جرى بيننا في غير طائل.

أرأيت يا أختاه؟ أولاء هم الغرباء، قوم كرام على أنفسهم، ونحن عليهم غير كرام... فلا يدري الفقير منا كيف يخاطبهم أو يشعرهم بحاله أو يعطفهم عليه... فنحن أهون عندهم من أن نحرك فيهم ساكنًا أو نشغل لهم بالًا.

ولما عدت إلى مكتبي وقصصت ما حدث على «إميليان» ضحك كثيرًا، وهز رأسه وسكت... ثم راح يسري عني ويفتح أمامي أبواب الأمل، فهو مثلي رجل فقير، ووعد بتزكيتي عند صديق له يسكن حي «فيبورج» يقرض الناس بربا معقول، وسأذهب إليه من غدي.. فما رأيك يا أختاه؟ ألست على حقٍّ؟ وهل من هذا السبيل بدٌّ أو عنه مندوحة؟ فهذه ربة البيت تتوعدني بالطرد إذا لم أؤدِّ لها حقها المتأخر وأجرها الممطول، وهي تأبى منذ اليوم أن تقدم لي طعام العشاء نسيئة كما كانت تفعل من قبل، وأما نعلاي

يا أختاه فحالهما شر حال، وأما سترتي فقد كثرت فيها الخروق، وطاح البِلَى بنصف أزرارها المعدنية الصفراء.. حتى ما أدري كيف أواجه نظرات رؤسائي لو رأوا كيف بت أبدو... إنها لتكونن إذَنْ كارثة ليس عنها من محيص.

مقار ديوفشكين

٤ أغسطس

عزيزي مقار،

أستحلفك بحق الله عندك يا مقار أن تدبر قدرًا من المال على وجه الاستعجال، كائنًا ما كانت الوسيلة.

وما كنت لأطلب إليك هذا الطلب، أو أستأديك العون وأنت في هذه الظروف التي أعلمها علم اليقين، لولا أنني أُلفي نفسي في موقف لا يطاق معه الصبر ولا تنفع فيه الحيلة.. فلا أراني قادرة بعد الآن على التلبث في هذا البيت الذي أسكنه بحال من الأحوال.

تصور يا صديقي أنني حظيت اليوم بزيارة من رجل غريب لا أعرفه، متقدم في السن حتى ليكاد يحسب في عداد الشيوخ، ترصع صدره نياشين ذات عدد وبريق، فأدهشتني هذه الزيارة التي لم أعرف لها سببًا.. وكانت فيدورا في السوق تشتري حاجاتنا، فأنشأ الزائر المجهول يسألني عن أحوال معاشي، وشواغل حياتي، ثم انتقل -قبل أن أجيبه عن أسئلته- إلى مكاشفتي بحقيقة شخصيته،

فإذا هو عم ذلك الضابط الذي زارني يومًا ليراودني عن شرفي، وأنحى على ابن أخيه الشاب باللائمة الشديدة، واستنكر تشهيره بي في الحي كله بما أثاره من فضيحة بسلوكه الشائن، الذي أملاه عليه طيش الشباب، ثم عرض عليَّ حمايته، زاعمًا أنه يشعر نحوي بعطف أبويٍّ، وحنان والديٍّ صادق يدفعانه إلى رعايتي ومساعدتي.. فتخضب وجهي بحمرة الحياء، وحرت في تأويل ما يقول، فلم أعبر له عن شكري، فجذب يدي عنوة، ثم داعب بأنامله العجاف ذقني، وهو يطري سحر عيني ونضرة حسني!! ثم صاح منتشيًا حينما اكتشف أن لي في وجنتي «غمازتين»، وهم أن يقبلني قهرًا، قبلة يزعمها من فيض الأبوة العطوف.

ودخلت فيدورا في هذه اللحظة، فاضطرب وتراجع، وجعل يكرر في تلعثم ظاهر أنه يقدر وداعتي واستقامتي.. وأنه يرجو أن أطمئن إليه وأثق به.. ثم انتحى بفيدورا جانبًا وحاول أن يدس في يدها شيئًا من المال متعللًا بتعلات عرجاء، ولكن فيدورا أبت بطبيعة الحال أن تقبل منه شيئًا، فانصرف على وعد بتكرار الزيارة، حاملًا إليَّ قرطًا من الذهب أزين به أذني الجميلتين.

ولم ينسَ أن يوصيني قبل انصرافه بتغيير مسكني، فأنتقل إلى مسكن آخر خير من هذا ولا يكلفني أجرًا.. ثم قال إنه يعرف «آنا فيودروفنا» وأنها ستأتي لزيارتي عما قريب.

فما إن سمعت منه هذه العبارة الأخيرة، حتى تكشفت لي

الحقيقة بحذافيرها، وأدركت أن هذه القوادة قد عادت إلى إلقاء شباكها حولي، ولا حول لي... فانفجر غيظي المكتوم، وجعلت أنتفض وأسب الرجل وأصرخ طالبة إليه الخروج من بيتي، فجرته فيدورا إلى الباب جرًّا.

إن هذه المرأة قد دبرت لنا هذا الشرك، وما كان الرجل يعرف طريقنا لولاها... فلا تتخل عني الآن يا صديقي بحق السماء، وأخرجني من هذا المأزق.. اقترض.. اقترض مالًا بأي شكل من الأشكال.. حتى ننتقل من هذا البيت إلى موضع لا تعرف فيه «آنا فيودروفنا» مكاني. ولا يكفي لهذه النقلة أقل من خمسة وعشرين روبلًا.. أتوسل إليك ألا تحجم عن شيء في سبيل الحصول عليها.. فلا تهولنك فائدة الربا، ولو كانت أضعافًا مضاعفة، أقدمْ على أي شيء، واقبلْ كل شرط يفرض عليك.. ولكن لا تتخل عني ولا تخذلني يا صديقي الوحيد وأملي الفريد.

بربارا

* * *

أين المفر؟

٤ أغسطس

يمامتي وعزيزتي العزيزة،

إني أترنح تحت هذه الضربات المباغتة التي أحس بها تتواكب فوق رأسي، فتسحق مقاومتي وتشل وجداني وتمحق روحي.

ما أشقاني بالحياة بين هؤلاء الناس الذين تموج بهم المدينة الكبيرة، متسكعين، متطفلين، شامتين، لا يفهمون الألم، ولا يعرفون الرحمة. إنهم ليدفعونني إلى اليأس، كلا، بل إلى ما هو شر من اليأس، إلى الجنون أو الانتحار، أو الكفر والاستهتار.

ما أشقاني بما كتبت إليَّ، فإني لأفضل الموت في أبشع صوره على القصور عن معونتك، وقد طلبت هذه المعونة في ألم يفتت الأكباد.

بل إني أشقى شقيٍّ، حتى إذا وسعت طاقتي إسعافك بما تريدين من العون، فلو لبيت طلبك، لكان في ذلك بعدك عني، كما يحلق العصفور بجناحيه في الفضاء، فلا تصل إليه يد ولا يقربه منك إلا أن يعود إليك، وأنت تريدين ذهابًا لا رجعة فيه.

ولكن ما حيلة العصفور وقد اجتمعت على عشه البواشق والصقور، تريد أن تهلكه وهو راقد فيه.

وتلك يا حياتي هي شقوتي المزدوجة وحيرتي الرائنة.. فلماذا تلقين بي في هذه المحنة؟ ولماذا تشقينني وتشقين نفسك، فإنك لن تجدي في البعد عني إلا الوحشة، وأنت كالأطفال لا غناء لك عن راعٍ يسهر على صحتك الرقيقة، وإلا أضررت بها بما في طبعك من تهور وقلة اكتراث. وما أحسبك إلا تنوين الانكباب في حياتك على الحياكة والتطريز، حتى تنوئي بذلك العمل الشاق.

ڤارينكا! ڤارينكا! أعدك أن أكون لك خير راع ومعين، ولكن لا تتركي جواري يا أختاه! ودعي التفكير في العمل، فسأقوم أنا بكل ما يلزم لمعاشك، سأعمل في نسخ المؤلفات ليلًا، سأطرق أبواب المؤلفين وأحملهم على تكليفي بنسخ كتاباتهم حملًا؛ لأنهم بحاجة إلى نساخين من ذوي الخط الحسن. أنا من هذا على يقين، فلا يداخلك في ذلك شكٌّ.

وثقي أيضًا أنني سأقترض من المال ما يكفيك إلى أن أجد

هذا العمل الإضافي السخي، أتقولين في خطابك إنني لا ينبغي أن أتراجع أمام فداحة الربا؟ ثقي أنني لن أتراجع أمام شيء مهما كان في سبيل تدبير المال، ولكن أستحلفك ألا تفارقيني وإلا مت كمدًا، فما حياتي بغير جوارك؟ أنت لي كالشمس للنبات والماء للحوت.

سأطلب أربعين روبلًا قرضًا أصلح به شأنك وشأني، وهو ليس بالمبلغ الكبير. أترينه كثيرًا؟ أتظنين الحصول عليه يسيرًا؟ أترينني -في نظرك- أوحي بالثقة، بحيث يطمئن المرابي إلى كلمتي، فكلمتي هي الضمان الوحيد الذي أملك تقديمه لقاء هذه الروبلات الأربعين.. أعني هل يدل منظري وشكلي العام على أنني أهل للثقة؟ حاولي يا ملاكي أن تتذكري أول لقاء لنا وخبريني هل تدل النظرة الأولى إليَّ على رجل يبشر بالخير ويستأهل الاحترام والتقدير؟ ولا تكتمني رأيك الحق، فإني أرتعد فرقًا من الفشل في هذا المشروع.. حتى بات الوسواس لا يفارقني في غدوي ورواحي.

وقد اعتزمت أن أخصص من هذه الروبلات الأربعين خمسة وعشرين روبلًا لما يلزمك يا ڤارينكا، وأعطي خمسة أخرى لربة بيتي حتى أكفّ أذاها، وأدبر شأني المضطرب بما يتبقى منها.

والحق أنه كان ينبغي أن أدفع إلى ربة البيت أكثر من هذا المبلغ، لولا كثرة ما يلزمني لزومًا عاجلًا ملحًّا، فلا بد لي من حذاء جديد يكلفني روبلين على الأقل، فلست واثقًا أن حذائي الحالي قادر على الصمود إلى الغد! فالله وحده يعلم كيف سيتسنى لي الوصول غدًا

إلى الديوان بهذا الحذاء المتداعي.. أما رباط العنق العتيق القذر فلا أظنني بحاجة إلى شراء بديل عنه، ما دمت قد وعدتني بعمل رباط لي من بعض أثوابك القديمة. ولكن لا غنى لي عن شراء أزرار معدنية جديدة، بعد أن ضاع أكثر من نصف أزرار كسائي.. وإني لأرتعد فرقًا لمجرد التفكير في احتمال وقوع نظر سعادة المدير العام على شخصي وقد أصبح بهذا القدر من الزراية والابتذال! ماذا عساه أن يقول عني وأنا الرجل القديم العهد بالخدمة، المشهور بالرزانة والاحتشام؟ لن يقدر لي أن أسمع تعليقاته؛ لأنني سأكون قد مُت خزيًا لمجرد نظره إليَّ.

ويبقى يا ملاكي بعد هذا ثلاثة روبلات، أعيش بها سائر الشهر، وأشتري نصف رطل من الطباق، فأنا يا حياتي لا أستطيع الحياة من دون تدخين.. وها قد انقضت تسعة أيام لم أرفع فيها غليوني إلى فمي.

إني ضعيفٌ أمام عادة التدخين، وكان بوسعي أن أفكر في شراء الطباق دون علمك، ولكني كنت خليقًا أن آلم لهذا الخداع.. أما يكفيني أن تكوني في ضيق وعوز، وأسرف أنا في إرضاء ملذاتي التافهة.. حتى أضيف إلى هذا الضعف وصمة الاختلاس؟ لهذا يا حياتي حرصتُ على مصارحتك والاعتراف بين يديك بذلتي حتى لا ينغص عليَّ تأنيب الضمير يقظتي ومنامي.

أواه! إني لأجد نفسي الآن في موقف لم أقف مثله من قبل، في

كل ما مر بي من ظروف الحياة وشدائدها.. فربة البيت تلاحقني بازدرائها، ولم يبق لي احترام في نظر إنسان.. وصارت الضائقات والأزمات والديون تنوشني من كل جانب في هذا البيت الملعون.

ما في الديوان فالأمر أدهى وأمر؛ فما تعودت من زملائي ولا سيما الشبان منهم كل عطف وتقدير ومودة، قبل أن أصل إلى درك بؤسي الراهن.. فغير غريب أن يتفاقم الأمر الآن. لذلك صرت حريصًا على أن أتسلل إلى مكتبي تسلل اللص، حتى لا تقع على هيئتي عين ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

فيا ويلتي لو رفض المرابي إقراضي هذه الروبلات الأربعين! لا طاقة لي بالتفكير في هذه الكارثة، ولهذا أوثر ألا أشغل ذهني بها.. فلو وقع هذا الحادث الجلل، لطواني الردى قبل أن أجسر على العودة إلى ما ينتظرني في البيت من عذاب ونكاية، وإلى ما ينتظرني في عينيك من نظرات الألم والعتاب.

لقد أطلتُ عليك.. وإنني ينبغي أن أحلق لحيتي، فذلك أليق وأدعى للثقة والاحترام.

رعاك الله، ووفقني، والسلام.

مقار ديوفشكين

٥ أغسطس

عزيزي العزيز مقار،

ليتك لا تمتحن نفسك بكل هذا العذاب الذي تلوكه وتجتره مرة بعد مرة، فلأنت أشد على نفسك من أحداث زمانك الشداد.

هذه ثلاثون كوبكًا أبعث إليك بها، هي كل ما استطعت تدبيرها لتصلح بها شأنك إلى غد.. أما نحن يا صاحبي فلم يبق لدينا شيء، وما أدري ماذا نحن صانعتان غدًا، فليت غدًا لا تشرق شمسه أيها الصديق!

الموقف دقيق نكد، ولكن أي جدوى في اجترار الهموم؟ لقد حاولت فأخفقت، فماذا كان في وسعك بعد هذا؟

إن فيدورا تؤكد لي أن الأمر ليس كما تتصور من السوء والضنك، وهي تزعم أن بقاءنا حيث نحن أمر ممكن، بل هي تذهب في زعمها إلى التهوين من جدوى النقلة إلى بيت آخر، فإن مثل «آنا فيودروفنا» قمينة أن تتعقبنا، وتعرف مثوانا الجديد، فهي واسعة الحيلة قوية المراس، ولكني ما زلت أرى بقائي في هذا البيت غير لائق ولا مستساغ، ولو لم أكن مكتئبة النفس لكتبت إليك عن هذا الأمر في شيء من الإسهاب.

إن لك يا مقار لخلقًا عجيبًا حقًّا! فما أشد اكتراثك لهموم الناس، واهتمامك لآلامهم.. وتلك خلة توردك موارد الشقاء،

وتجعلك على الدوام في عذاب مقيم.

إني أعيد الآن تلاوة خطاباتك جميعًا، فما أشد ما يروعني مِمَّا تبديه من العناية بشأني والاهتمام لهمومي... حتى لتنسى أمر نفسك وخاص شأنك، فساءت حالك وبت في موقف لا مخرج لك منه إلا بعناية من السماء تُلحظ بها على غير انتظار.

ولا شك عندي أنه ما من إنسان لا يرى فيك طيبة القلب مصورة ماثلة. ولكني أراك مفرطًا في الطيبة، مسرفًا في النبل والأريحية... فبعض هذا يا صديقي العزيز.

هذا نصح صديقة تخلص لك الود وتريد بك الخير... وإني لك شاكرة، ولأياديك عارفة، وبفضلك مقرة معترفة.. بل إن إحساسي بأفضالك يسبب لي حيرة شديدة، فلست أدري كيف أجزيك إحسانًا بإحسان، وليست لي بذلك الجزاء يدان.

فانظر أي ألم يحز في قلبي وأنا أعلم إلى أي مدى بلغت بك الآلام والمتاعب والأزمات، وإنني أنا سبب هذا البلاء عن غير قصد.. فقد كنت ذا يسر ورفاهية، فصرت بسببي إلى الفاقة والدين الثقيل. وكنت ذا سمت وزينة، فصرت بسبيل إلى المهانة وسقوط الهيبة.

لقد عنيت نفسك بأمري، فلم يكن لك هَمٌّ إلا أفراحي وأتراحي وأوجاعي وشجن ما غبر من عمري وما حضر. فلو عُنِيَ كل إنسان

نفسه بشأن الغرباء عنه كما عنيت نفسك بشأني، لكان خليقًا أن يجر على نفسه كلاكل البلاء من حيث لا يحتسب.

رباه! كم خشيت عليك أن يصيبك مكروه حين عرجت على بيتي بعد خروجك من الديوان، لقد كنت شديد الشحوب، ظاهر الجزع، تكاد تتهالك من فرط الإعياء... إشفاقًا عليَّ أنا من الصدمة القاسية، لأنك لم توفق فيما حاولت من القرض، فلما قلت لك إنني غير آبهة، وأخذت أضحك إمعانًا في إظهار استهانتي بالخطب، سرى عنك من فورك.

فأتوسل إليك يا عزيزي ألا تروع نفسك من أجلي، وثق أن كل شدة إلى زوال، وكل ضيق إلى فرج... فإنه يستحيل على أي امرئٍ أن يعيش كما تعيش أنت، موزع النفس، مقسم الفؤاد، مُعنى بما يصيب سواك كأن المصاب مصابك وأشد وقعًا.

فثب إلى الهدوء يا صديقي، ولا تكترث لشأني إلى هذا الحد الأليم.

بربارا

٥ أغسطس

يمامتي الصغيرة ڤارينكا،

الحمد لله أنك قد تلقيت فشلي في الحصول على المال بهذا التهوين، فقد خشيت أن يقع عليك النبأ موقعًا سيئًا.. وأحمد الله

كذلك لأنك قد عدلت عن هجر جواري إلى مكان لا أراك منه حين أمسي وأصبح.

وقد شرح قلبي وأثلج صدري ما جاء في رسالتك من تقدير جميل وفهم صائب لحقيقة مشاعري نحوك... وما لمسته في سطورك من اهتمام بسعادتي وراحة قلبي، ونصحك لي بالثبات والجلد. ولكن خبريني يا يمامتي من أين يأتيني الجلد ونعلي مخروق ينفذ منه الماء والوحل كلما خطوت في طريقي خطوة؟ وكيف أستطيع الذهاب غدًا إلى الديوان بهذا النعل المنكود؟ هذا ما يحيرني ويقض مضجعي، وما أحسبه حريًّا أن يضني أي إنسان كريم ويمحقه محقًا.

ولكن هذا على فداحته كان قمينًا أن يهون عندي لو أنه كان يعنيني وحدي، فأنا رجل متواضع ساذج، لا يضيرني أن أخرج بغير معطف، وبغير قبعة، وبغير حذاء في هذا البرد القارس، فأنا أهل لاحتمال كل شيء، ولكن ماذا عسى أن يقول الناس؟ وماذا عسى أن تتخرص به ألسنة السوء؟ فما الزينة واللباس الحسن إلا تقية أتقي بها الناس، فمن أجل رضاهم أتجمل ما استطعت، ولو تركت لشأني ما تجملت... ولهذا أراني بحاجة إلى حذاء جديد بأي شكل من الأشكال؛ إنقاذًا لشرفي وسمعتي من البوار.

إن الوقت لم يتسع لي أثناء زيارتك كي أفصل لك ما وقع لي اليوم تفصيلًا كافيًا.. فالله وحده يعلم كم قاسيت من الآلام وتحملت

من الأوجاع النفسية في غضون ساعات هذا الصباح المشؤوم. ولا أراني مغاليًا إذا قلت إنني لم أعانِ -وأنا الشقي المرزأ- مثل هذا البلاء في مدى عام كامل فيما مر بي من عمري الحافل بالأحزان.

لقد صحوت وغادرت البيت في ساعة مبكرة جدًّا، حرصًا على الفراغ من زيارة المرابي قبل موعد الديوان. وكان المطر ينهمر ساعتئذ، والأوحال تغطي وجه الطريق، فالتففت في معطفي البالي، ورحت أحث الخطى وأنا أقول ضارعًا إلى الله:

- رب اغفر لي خطيئاتي، واكتب لي التوفيق في هذا الطريق!

فلما مررت أمام البيعة، رسمت على وجهي علامة الصليب، واستغفرت الله ذنوبي من قلب خالص، واستأنفت سبيلي، منطويًا على نفسي، غارقًا في أفكاري، لا أكاد أنظر إلى مواقع قدمي.

وكانت الشوارع خالية من الناس في هذه الساعة، ومن لقيته منهم كان يبدو عليه الهم والكرب. ولا غرو! فمن ذا الذي يسير راجلًا تحت المطر وبين الأوحال في ذلك الوقت الباكر من الصباح، إلا أن يكون شقيًّا منكودًا؟!

وعبرت بي في الطريق جماعةٌ من العمَّال عليهم ثياب ملطخة بالزيوت والشحم والأوساخ، وليست أكفهم بأنظف مما عليهم من الثياب، فاحتك بي أولئك المناكيد حتى أوشكت أن أقع، وكأنما كنت أنتظر هذه الصدمة الخبيثة كي أفارق ما أخذت به نفسي من

الجلد والهدوء، فإذا القلق ينتابني، وإذا أنا أخشى مجرد التفكير في ذلك المبلغ الذي كنت في طريقي إلى اقتراضه من ذلك المرابي.

وحين بلغت «قنطرة القيامة» انفصل عن حذائي أحد نعليه، وما أدري كيف استأنفت سيري بعد ذلك على هذا الحال الغريب.

وما سرت خطوات معدودات، حتى لقيني أحد الموظفين في الديوان، فجعل يصعد فيَّ نظراته، ويتأمل هيئتي الغريبة، ثم هز رأسه أسى كأنه يقول:

- أفي هذه الساعة ينكب الناس على الشراب؟

ثم انتابني تعب شديد، فتمهلت قليلًا حتى استرددت شيئًا من قواي المنهوكة، ثم واصلت المسير وأنا أتلفت حولي لعلني أجد شيئًا أشغل به خاطري، حتى لا تخونني شجاعتي فأعود أدراجي.. ولكن عبثًا، فلم أجد لذهني مشغلة غير حالي.

وكانت ثيابي قد اكتست بالأوحال، حتى تناثر منها على صدري ووجهي رشاش، فلحقني من ذلك خجل شديد، بدد مقاومتي وأوهى جلدي.

ثم لمحت على البعد بيتًا من الخشب أصفر اللون، فقلت أمني النفس وأهون عليها مشقة المسير:

- هذا هو أخيرًا بيت ماركوف المرابي.. لم يبق عليه إلا القليل.

وكنت واثقًا من البيت، بيد أني أحببت أن أستوثق، فسألت

البوَّاب، وكان رجلًا جلفًا، فأجابني في جفوة وفظاظة واقتضاب:

- أجل. هذا بيت ماركوف.

فلم آبه لغلظته، وإن كانت قد تركت في نفسي أثرًا سيئًا. وقد جربت فيما مضى من عمري أن من استبشر خيرًا أفلح في مسعاه، ومن انقبضت نفسه لم يلق إلا ما يحزنه ويسوؤه.. وقد أوقع ذلك البواب في نفسي كآبة، فبدا عليَّ التردد، وقر في ذهني أن الرجل رافض طلبي لا محالة، وقفزت إلى خاطري كل عوامل التثبيط، فتذكرت أن الرجل لا يعرفني، فهو إذَنْ حري ألا يثق بي.. ولا سيما أن مظهري لا يشجع على الاحترام.

وكاد التشاؤم يثنيني عن الدخول، لولا أنني قلت لنفسي:

- دع المقادير تجري في أعنتها، وليكن ما يكون، وعليَّ أن أسعى وليس عليَّ إدراك النجاح... ولئن حاولت وأخفقت فقد أعذرت.

وهممت أن أدفع البوابة الصغيرة في سكون وهدوء، ولكن كارثة جديدة أفسدت عليَّ هذا العزم، فقد انبرى لي كلب صغير خبيث، فجعل ينبح بكل قوته نباحًا متواليًا.

ولا تحسبي مثل هذا الأمر الصغير تافه الأثر، فما أوهن هذه التوافه لعزمات الخائرين أمثالي!

وتوكلت على الله مستعيذًا به ودخلت، فإذا كارثة أخرى

تنتظرني وراء الباب، فقد كان المدخل مظلمًا، فلم أتبين موضع قدمي، وكانت وراء الباب امرأة عجوز تصب اللبن من قعب كبير في آنية صغيرة، فاصطدمت بها بغتة، فطاح القعب من يدها وتدفق اللبن منه على الأرض، فجعلت تعوي وتتفجع وتصيح:

- هل أنت أعمى أيها الشيخ؟ ألا ترى ما صنعت؟ ماذا تريد هنا؟

ثم تدفقت الشتائم من فمها مختلطة بالتأوهات والزفرات.

وإني أقص عليك هذه التفصيلات عمدًا؛ لأن أشباهها تحدث لي على الدوام في كل أمر أحاول قضاءه، لسوء طالعي... فما من مرة من هذه المرات إلا أوقعني نحسي في أحد أو في شيء ما كان ينبغي لي أن أقع فيه.

وجاءت على الضجة امرأة عجوز قبيحة الخلقة، فبادرت إليها سائلًا:

- أهنا يقيم السيد ماركوف؟

فقالت على الفور:

- كلَّا...

ثم لما رجعت في نظرتها الفاحصة قالت بعد تردد يسير:

- وماذا تريد منه؟

فشرحت لها مرادي في اختصار، فنادت المرأة ابنة لها يافعة حافية القدمين، وقالت لها بصوت أجشٍّ:

- نادي أباك، فهو عند المستأجرين في الدور الأعلى.

ثم قالت لي:

- تفضل أيها السيد بالدخول.

فدخلت، فإذا حجرة لا بأس بها، على جدارها صور كبيرة الحجم، ما فيها إلا صورة قائد أو أمير! وفي وسط الحجرة منضدة مستديرة وإيوان للجلوس وأصيص من البلسم.

فلما تركتني العجوز وحدي قلت لنفسي:

- أليس من الخير لك يا صاح أن تخرج الآن، قبل أن تتلقى صدمة الرفض القاسية؟ اخرج الآن وعُد غدًا، فقد يكون الجو أكثر اعتدالًا، فليس في هذا الصباح ما يبشر بالخير، فقد أراقت السماء فيه ماء المطر، وأرقت أنت اللبن على عتبة الدار، وليس في مرأى هؤلاء القُواد الوقورين المهيبين الذين يطالعونك من هذه الجدران ما يبشر بالخير والفلاح!

وهممت أن أستقبل الباب، فإذا صاحبي يدخل منه.. وإذا هو رجل أشيب الرأس، عليه ثوب من أثواب البيت، باهت اللون تعلوه طبقة من الأوساخ، فسألني عن الباعث لي على زيارته، فقلت له إن «إيميليان إيفانوفتش» هو الذي أرسلني؛ لأنني بحاجة إلى أربعين

روبلًا لشأن عاجل، فرأيت في عينيه رفض طلبي واضحًا، ثم قال لي:

- لا جدوى من الحديث، فليس لديَّ ما أقرضه.. ثم هل معك ضمان أو رهن؟

فأجبته:

- ليس عندي ضمان أو رهن، ولكن إيميليان قال إنك رجل نجدة، وأنا بحاجة ماسة إلى هذا المبلغ فورًا وبأي ثمن.

فأصغى لكلماتي كلها حتى انتهيت ثم قال:

- لا حيلة لي، فليس عندي مال في الوقت الحاضر.

فوددت في هذه اللحظة لو أن الأرض انشقت فابتلعتني يا ڤارينكا... ولكن الأرض لم تنشق، وبقيت قائمًا في وسط الغرفة، في ملتقى نظرات القواد العظام المعلقة صورهم على الجدران، وقد دارت بي الأرض الفضاء، واستولت عليَّ قشعريرة مباغتة وخانتني ركبتاي وتخاذلت ذراعاي.

وجعلت أنظر إلى الرجل، والرجل ينظر إليَّ، وتكاد نظرته تصيح بي:

- اخرج أيها الرجل! ماذا يبقيك بعد هذا؟

ولكني تجلدت وبقيت حيث كنت، فقال لي فجأة:

- ولماذا تريد هذا المبلغ؟

فعجبت لتطفله الجريء، وما فتحت فمي لأجيبه حتى عاد إلى الكلام دون أن يصغي لما كنت سأقوله:

- كلا! كلا! فليس لديّ مالٌ، وإلا لأديت لك هذه الخدمة عن طيب خاطر.

فحاولت إقناعه، ورحت أتكلم وأتكلم، مهونًا من قيمة المبلغ الذي أطلبه، مؤكدًا له عزمي على الوفاء به قبل أجله المضروب، واستعدادي لدفع أي فائدة يطلبها بغير مماكسة.

وكانت صورتك يا ملاكي العزيز هي التي شددت عزمي وأملت لي في هذا الإلحاح. ولكن الرجل ظل على صلابته فلم يلن، وجعل يردد في إصرار:

- لا فائدة من الكلام في الفائدة والربح، فقد كنت أفكر في إقراضك لو كان معك رهن أو ضمان، أما هكذا يا صاحبي فلا! ليس عندي مال.. أقسم لك بالله العظيم أنني لا أملك هذا المبلغ، ولو كان معي لما ترددت في إعطائك إياه. والله على ما أقول شهيد.

ما أشد تبجحه وهو يقسم آثمًا غير متحرج!

ولم أدرِ والله يا أختاه كيف عرفت طريق الخروج، وكيف اخترقت الشوارع دون أن أضل طريقي، فما كانت فيَّ ذرة من الرشد.

ولم أصل إلى مكتبي في الديوان إلا بعد أن تجاوزت الساعة العاشرة، ووقفت في دهليز الديوان قليلًا، ثم فكرت في تنظيف

كسائـــي مما علق به من الأوحال، بيد أن «سنييجيريف» الحاجب نبهني إلى أن هذا العمل من شأنه أن يوســـخ الفرشاة، والفرشـــاة مما يستعمله سعادة المدير، ثم إنهـــا من أملاك الدولة التي ينبغي أن تصان من العبث والتلف.

إلى هذا الحد يا أختاه بلغ بي الهوان، حتى على الحجاب والخدم.. فأنا أهون شأنًا من حزمة من القش يسمونها فرشاة.. وهذا الهوان يا أختاه هو الذي يقتلني غمًّا وهمًّا.. فليس الإفلاس والفقر إلى المال في ذاته شيئًا، لولا سقوط الكرامة وضياع الهيبة... ولولا ذلك الهمس والغمز واللمز ونظرات السخرية التي أقابل بها في كل مكان.

واهًا لي يا أختاه! لقد مضت الحلاوة عن أيامي، ولن تعود إليها.

لقد تلوت خطاباتك جميعًا في يومي هذا، فأورثتني هذه القراءة حزنًا على حزن.

وداعًا يا صديقتي، وفي حفظ الله!

مقار ديوفشكين

ملحوظة: لقد حاولت أن أمزج قصة إخواني بالفكاهة، فجاءت الفكاهة مريرة المعالم، كأنها أنين أخطأ مخارج الصوت. وكم كان بودي أن أتبع نصحك فلا أكترث.. ولكن هيهات.. وسآتي لزيارتك عن قريب.

١١ أغسطس

بربارا، يمامتي وأختي،

لقد ضعنا وانتهى الأمر! نزلت الكارثة بي وبك، فقضت على سمعتي وشرفي، وأصابك منها رشاش غير يسير! لقد بتُّ مضغة في الأفواه، وأضحوكة للصغار والكبار.

لقد اجترأت ربة البيت عليَّ، وأطلقت لسانها فينا بما وسعها من التهم والسباب، لم تدخر تصريحًا ولم تَأْلُ في الأقذاع جهدًا... وكنت أنا سبب هذا البلاء الذي حاق بك منه أسوأ ما يحيق بامرأة مخدرة.

فبالأمس، وقد أقبل الليل، أخرج صديق من أصدقاء جاري «راتازاييف» مسودة خطاب كتبته إليك، وكانت قد وقعت من جيبي لشرود ذهني وضعف بصري دون أن أدري... وأخذ يقرأ هذه المسودة، والسكَّان جميعًا من حوله يعلقون على عباراتها بنكات مقذعة وسخرية لاذعة... فثرت ووصمت جاري «راتازاييف» بخيانة الصداقة وعهد الجوار، فسخر مني قائلًا:

- بل أنت الذي خنت العهد، ورحت من وراء ظهورنا تقتنص قلوب الغانيات، أيها الغوي المضل الكهل زير النساء.

فانطلقوا جميعًا يصيحون بي:

- زير النساء! زير النساء!

وباتوا لا ينادونني إلا بذلك اللقب الشائن! فما أشد خجلي وخزيي! هم إذَنْ يعرفون كل شيء. هم إذَنْ على علم بدقائق حياتنا، وما بيننا من مودة وتعاطف.

والأنكى من هذا أن الخادم «فالدوني» بات في زمرة الهازئين، فلما طلبت إليه اليوم أن يبتاع لي شيئًا من السوق، أبى أن يذهب. ولما قلت له وأنا في عجب من أمره:

- ولكن واجبك أن تطيع.

أجابني بوقاحة:

- لست ملزمًا بطاعتك ما دمت لم تدفع أجر سكنك!

فلم أطق صبرًا وصحت به:

- أنت وقح.

فرد عليَّ السبة بمثلها وزيادة، فحسبته مخمورًا وقلت له:

- أراك لست في حالتك الطبيعية، وما أحسبك إلا مخمورًا.

فصعر الوغد خده وقال لي:

- وهل سكرت بمالك؟ لو كان معك ثمن كأس لشربتها، ولكنك صعلوك مفلس تعيش على صدقة تجود عليك بها امرأة علمها عند الله وأهل العلم.

ثم بصق على الأرض، وقال في ازدراء:

- ومثل هذا العتل يدعوه الناس سيدًا!

هذا يا أختاه هو ما صرت إليه اليوم، حتى بت خجلان من نفسي، مستخزيًا من عيشي.

أما لهذا الليل من آخر؟

لقد هبطت حتى لم يبق مزيد من الهبوط، وقنطتُ حتى استنفد آخر مدى القنوط.

فحتى متى؟

مقار ديوفشكين

١٣ أغسطس

عزيزي العزيز،

لقد تكاثرت علينا الأرزاء، حتى لم أعد أدري ما العمل... وثالثة الأثافي يا صاحبي أن المكواة أحرقت يدي اليسرى، أحرقتها وأنا شاردة الذهن، فلم أتنبه إلا بعد فوات الأوان... وكذلك استحال عليَّ العمل حتى تبرأ يدي.

وهذه فيدورا مريضة منذ ثلاثة أيام، فلا سبيل لها إلى العمل أيضًا، فأنا من هذا في همٍّ مقيم.

هاك نصف روبل هو كل ما استطعت الحصول عليه، وليس معي سواه... والله وحده يعلم كم كنت أود أن أمد لك يد العون في

ظرفك الراهن... ولكنها إرادة الله!

لقد بكيت قهرًا عندما حرقت يدي، بكيت من أجلك، فقد كنت أريد أن أعمل غاية جهدي لكي أعينك على حياتك... فتعال لزيارتي اليوم، ففي ذلك مسلاة لي كما تعلم.

بربارا

١٤ أغسطس

ماذا دهاك بحق السماء يا مقار ألكسييفتش؟ ألا تخاف الله؟ إنك تكاد تدفعني إلى الجنون دفعًا بمسلكك المخزي.. فاتق الله في سمعتك، فقد كنت على الدوام رجلًا فاضلًا متزنًا أبيَّ الخلق، فكيف سولت لك نفسك أن تلطخ بالعار لمتك البيضاء؟

اتق الله يا شيخ! لقد ضاقت فيدورا بتصرفاتك ذرعًا، وأقسمت لا تساعدك بشيء من كدها بعد اليوم، ما دمت تبدد ما يصل إلى يدك في العبث الذي يسقط مروءتك ويفضحك بين الناس. وإني على رأي فيدورا في هذا، فلن أعطيك بعد اليوم كوبكًا يا مقار ألكسييفتش.

أم تراك تظن أنه يستوي عندك خيرك وشرك، فضلك ومجانتك، صلاحك وفساد أمرك؟ أو تجهل ما أتحمل راضية من أجلك؟ لقد أخزيتني باعوجاج صراطك، حتى بت لا أجرؤ على الظهور في درج بيتي، فما يراني الجيران حتى يشيروا إليَّ بالبنان ويتهامسوا بكلام

تقشعر منه الأبدان.. ومنهم من لا يخافت من صوته حين يصمني بالتفريط في شرفي في سبيل سكير عربيد! أو تحسبني أُسَرُّ بسماع مثل هذا الكلام؟

وما من مرة أعادوك إلى بيتك غائبًا عن الصواب بما عببت من الخمر إلا تحدث الناس عنك كما لو كان السكر صفة ملازمة لك لا تستحق مناقشة أو تعقيبًا أو دهشة... فأخجل لك.. حتى بات بقائي في هذا البيت أمرًا لا يطاق بسببك.

أجل، لقد عزمت على الرحيل عن هذا البيت بأي ثمن. سأعمل قهرمانة، أو خادمًا أو غسالة.. فأي شيء أفضل من عار صداقتك.

لقد دعوتك في خطابي السابق لزيارتي، ولكنك لم تأت.. فهل صارت توسلاتي عندك إلى الهوان، حتى ما تستجيب لي رجاء يا مقار؟

ومن أين لك ثمن الشراب؟ نشدتك الله يا صديقي أن ترحم نفسك وترحمني، ففي هذا الخمار قضاؤك، وفيه ضياع سمعتك وسقوط مروءتك.

أرأيت إلى ربة بيتك كيف أغلقت الباب في وجهك ولم تأذن لك في الدخول، وقد عدت أمس في ساعة متأخرة، تترنح من شدة السكر... فقضيت ليلتك -أو ما بقي منها- في دهليز الدار.

أكنت تحسبني لا أعرف هذا؟ بل أعرفه يا صديقي، فكل سرٍّ

يذيع بين الناس، ولا سيما أسرار السوء وأخبار المآثم.. ولعلك تقدر مبلغ حزني وخجلي حين سمعت الحقيقة من أفواه الناس هذا الصباح.. فاتق الله في نفسك، وفي شرفك، وفي قلبي المعذب من أجلك، فإنك توشك أن تقتلني حسرة وأسى.. فما من شيء يعلقني بالحياة الآن إلا أنت.. فمن أجلك محياي، فلا تكن علة مماتي، ولا تدع أعباء الفاقة تفسد عليك عزيمتك ومروءتك، فليس في الفقر ما يعيب المرء ذا المروءة، وإنما يعيبه حقًّا جنوحه إلى المجانة والإسفاف.

وإني أعلم أن يأسك من يسر حالك هو الذي أودى بما تعتصم به من التجمل والجلد، فانسقت في تيار الشراب. ولكنك مخطئ في هذا القنوط، فما من عسرة إلا إلى ميسرة. والله المستعان.. فاعتصم بحبل الله، واصبر ولا تقنط.

أبعث إليك بعشرين كوبكًا لتشتري بها طباقًا لغليونك. ولكن نشدتك الله ألا تنفقها في خبيثة من الخبائث، وأم الخبائث الخمر!

تعال لزيارتنا، ودع عنك هذا الخجل، فلا عليك مما فعلت، ما دمت قد تبت وأنبت، والله يقبل توبة التائبين، وسيجعل الله لك بعد ضيق فرجًا، والسلام.

بربارا

١٩ أغسطس

بربارا، يا أختي العزيزة،

شد ما يقل عليَّ الخجل، حتى ليكاد يأخذ عليَّ مسالك الأنفاس! ولكن أي ضير في هذا الذي أقترف؟ وهل من ضير في إذابة الهموم في كأس سميت كأس الحياة، «لو مسها حجر مسته سراء»!؟

أم هل كتب عليَّ يا أختاه أن أظل أسير الهموم، لا أسري عن فؤادي بعض ما يغص به من الأوصاب، برشفة من الشراب، تنسيه ما يلقى من دهره، وما يعلق بسره وجهره، من الضعة والهوان؟

ألا بارك الله في بنت الحان، إنما أعب منها جرعة بعد جرعة، حتى أنسى نعل حذائي الذي ذهب مع الريح! لعن الله ذلك النعل، فما ينفك يشغل دماغي في اليقظة، ويتراءى لي في أحلامي حين أنام!

وما أدري والله ما لزوم الأحذية للناس؟ إنها قيد وهمّ... وما كان قدماء اليونان يتخذون الأحذية، وإنما هي خفاف لطاف، فلماذا نُعنِّي أنفسنا بما لا طائل تحته؟

فأي عار فيما أفعل يا أختاه؟ إنك والله لتقيمين الدنيا وتقعدينها في غير جدوى. وأما فيدورا فأبلغيها عني أنها امرأة خواء القلب، تافهة العقل، عتلة زنيمة، خبيثة الطوية!

وأما ما عرضت به من شعري الأبيض، فذلك وهم من أوهامك

يا أختاه! فلست من الهرم بحيث تتوهمين.. وإن فيَّ لفتوةً!

تقولين إنك حزنت وبكيت غمًّا، وأنا كذلك بكيت يا يمامتي. والله تعالى مسؤول أن يرفع عنَّا سخطه ومقته.

وإياه أسأل أن يمنحك الصحة والعافية. أما أنا فبخير حال، وإني لك على الدوام يا ملاكي.

الصديق الوفي

مقار ديوفشكين

٢١ أغسطس

سيدتي العزيزة وصديقتي بربارا،

إني أشعر الآن بجسامة خطئي، فقد أخطأت في حقك خطأً فادحًا. وما أخالني وقد عنيت قلبك الغض وأضنيته بالهموم إلا وحشًا ضاريًا... ولكن الحق يا يمامتي أنني لست وحشًا ضاريًا، بل رجل طيب القلب، هو أشبه خلق الله بالحمل الوديع.

فكيف إذَنْ تورطت في هذه الأخطاء، وأنا ذلك الحمل الوديع الطاهر الفؤاد؟

لا أدري! ولكني أذكر أنك بعثت إليَّ ذات مرة نصف روبل «ثلاثين كوبكًا»، ثم عشرين كوبكًا بعد بضعة أيام.. فحز في نفسي جدًّا أن أهبط إلى هذا الدرك، وأن تجد فتاة رقيقة القلب مثلك أن التصدق عليَّ أمر طبيعي.. لقد كانت كوبكاتك أيتها الفتاة اليتيمة

مثل كوبك الأرملة المتسولة التي وضعته في صندوق النذور، شيئًا يرجح ملايين الأغنياء، ويزيد عليها في القدر.. ثم أحرقت يدك بالمكواة، ولم يبق لديك ما تأكلين، ومع ذلك شغلت نفسك بالإحسان إليَّ، كي أشتري طباقًا أو خبزًا.. فلما أنفقت كوبكاتك في طعامي وطباقي، استولى عليَّ ندم شديد.. وما كنت قمينًا أن آكل صدقتك أيتها اليتيمة المحرومة دون أن يعصف بي الندم والحزن.. فكان هذا الندم أقوى من احتمالي، ومن «قشرة» الكرامة الرقيقة التي أتجمل بها أمام نفسي.. فانهارت هذه القشرة، وجرفها تيار ندمي وخجلي وحزني، ومن هذه اللحظة بدأت قصة سقوطي، بعد حياة طويلة من التماسك ونقاء الصفحة!

فهل ترينني ملومًا على هذا السقوط؟

لا أظن! وإنما هو القدر، القدر الذي جعل مني ألعوبة هينة بين يديه القاسيتين.

لقد كنت أعالج همومي بالتجول في الشوارع حين صادفني إيميليان، الموظف الذي رفت منذ زمن من ديواننا، وكان يحمل أشياء يريد ارتهانها؛ لأن عياله جياع.. ولكنها أشياء لا ترتهن، فليست لها قيمة إلا من حيث هي تذكارات شخصية، وأخذتني به الشفقة، ورأينا حانة على الطريق يشع منها الدفء.. وكان الجو باردًا يا بربارا، فملت معه إليها، وشربنا كأسًا، ثم شرعنا في البكاء معًا، على سوء حظنا وسواد أيامنا، فوجدنا في البكاء راحة، ثم

شربنا كأسًا أخرى، وجعلنا نتذاكر آلامنا وأحزاننا.. وتحدثنا عنك كثيرًا يا يمامتي.. فبكى إيميليان من أجلك، فهو رجل طيب القلب، ولكنها مظالم الأيام!

فلا تحسبي يا يمامتي أنني أجهل ما أنا مدين لك به، فأنا مدين لك بالحياة كلها، فقبل أن أعرفك لم أكن حيًّا، لقد كنت وحيدًا لا أشعر بنفسي أو بمرور أيامي. كنت كالنائم، والنائم أخو الميت، لا إحساس له بالدنيا وما فيها.. وكان معارفي يحتقرونني شكلًا وموضوعًا، حتى انتهى بي الأمر إلى تصديقهم، فاحتقرت نفسي.

ثم ظهرت أنتِ يا ملاكي في أفق حياتي، فبدلت ظلامها نورًا مشرقًا، وبعثت الحياة في نفسي الموات! وبدأت أعي وجودي، وأشعر أن لي قلبًا، وأن لي روحًا، وأن لي نفسًا كنفوس البشر!

وفي فيض من نورك الذي أفأته على نفسي، عرفت معنى الطمأنينة، وهدوء السريرة، وانجاب عني الشعور بالمهانة والدونية، وبت أرى نفسي كفئًا لأي إنسان ممن كنت أحسبهم خيرًا مني بمراحل... ولم تعد تكربني زراية مظهري وقماءة قامتي، بعد أن صح عندي قيام شخصيتي الإنسانية بما انعقد بيننا من صداقة وتقدير.

فلما كثرت عليَّ المحن، وتداعى ذلك التقدير الذي كنت أستمده منك، انهارت روحي المعنوية، ولم يقف سقوطي عند حدٍّ.

فإذا أردت بي رحمة فاطوي هذه الصفحة، ولا تجري لها بعد اليوم ذكرًا؛ لأنها تهيج ما بي، وتمزق شغاف قلبي.

ولكِ خالص احترامي وصادق مودتي.

مقار ديوفشكين

❊ ❊ ❊

في متاهة الزمن

٣ سبتمبر

لقد عاقني الحزن والأسى عن إتمام خطابي السابق إليك يا مقار.. فحين تجثم الكآبة على صدري لا أجد في نفسي مطاوعة على الكتابة أو الحديث، وأركن إلى الخلوة كي أترك نفسي على سجيتها، وأطلق العنان لأحزاني ودموعي.

وأرى هذه السحائب السوداء قد كثرت في الأيام الأخيرة كثرة عظيمة، حتى صارت أشباح الماضي وتذكاراته تحف بي أكثر مما تحف بي حياتي الواقعة. وقد تستغرقني هذه التذكارات حتى أنسى الزمان والمكان، وكأن الواقع قد تلاشى من الوجود.. وقد تدوم هذه النوبات ساعات متواليات.

وأكثر هذه التذكارات مما يرجع إلى عهد الطفولة الناعمة في أحضان الريف.

وأما صحتي، فهي تزداد على الأيام ضعفًا، وأحسب هذه الذكريات علة ضعفي واستنفاد عافيتي.

بيد أني أرى هذا الصباح صحو الأديم مشرق الضياء، على غير المعهود في أيام الخريف.. ألا شد ما كنت أحب الخريف، أيام كنت في القرية طفلة مرخاة العنان بين الماء والزرع والهواء، مستقلة بمشاعرها.

في تلك الأيام، كنت أوثر أمسيات الخريف على صباحه، ولا سيما على حفافي البركة الكبيرة التي تجاور بيتنا، عند سفح التل. فهناك كنت أجلس إذا أرخى الليل سدوله، وأوت الماشية إلى مزاودها، وسكنت كل نأمة في القرية. فإذا صفحة الماء في سكونها وصفائها كأنها سبيكة من البلور، ودخان الخشب المحترق أمام كوخ للصيادين يملأ الهواء الساكن برائحة خفيفة، والندى يرصع نابت العشب الأخضر بلؤلؤة في إثر لؤلؤة.. وللهلال في صفحة السماء الصافية لألاء وبهاء يملأ النفس بهجة وهدوءًا.. فإذا خفق جناح طائر، أو روعه عن وكره مروع فصوت فزعًا، ملأ ذلك الصوت آفاق الفضاء.. لأن سكون الليل الرطيب قد أحال الجو إلى صندوق من صناديق الكمان الرنانة.

شد ما كنت آنس إلى هذا السكون الذي يزيل الحوائل بين نفسي وبين رحابة الكون اللامتناهي!

كذلك كان الخريف وأمسياته الحسان في ذلك الزمان.. حتى إذا حث الخريف الخطى، وجاء في أعقابه الشتاء، نقلت مسرح خواطري من ضفة البحيرة إلى مسالك الغابة ذات الدوح المنيف والظل الوريف، الذي يضرب الضوء فيه إلى الزرقة في النهار حتى إذا قربت ساعة الأصيل استحالت الزرقة سوادًا حالكًا.

وكثيرًا ما كنت أنسى نفسي في نزهتي، فيهجم الليل، وتتراءى لي الأشجار الباسقة كأنها المردة تهم بالانقضاض عليَّ وأنا أسير وحدي في قلب الغابة الموحشة.. فأحث الخطى، وقد جعل قلبي يخفق ويضطرب فكأني ورقة تتقاذفها الريح، التي أسمع عزيفها بين الغصون، وأحس بها تقترب مني كأنها زمزمة تطلقها أفواه الشجر.. وأخالها تقول لي في صوت أجشٍّ يقطر رهبة ووعيدًا:

- أسرعي أيتها الطفلة! أسرعي.. فليس هنا مكانك، فهو مسرح رهيب لرهيب من الأحداث، يكتم سرها الليل الكتوم.

فأجري ما أسعفتني قدماي وساقاي، حتى أصل إلى بيتنا مبهورة الأنفاس، فإذا الضوء ينبعث من السراج، والدفء يشيع في الحجرات، والأصوات المأنوسة تملؤها بهجة وأمنًا، فأجلس إلى مربيتي العجوز، فتقص عليَّ قصصًا رائعًا، تشارك في روعته مخيلتي الناشطة.. حتى ليجفو النوم أجفاني في بعض الليالي؛ لكثرة ما تشغل تلك الأقاصيص بالي، بما فيها من سحرة ومردة ومغامرات.. ولكني كنت أجد نفسي عند مطلع الصبح جمة النشاط

كزهرة أنعشها ندى الفجر، وأيقظتها قبلات ضوئه الحاني.

ومع الصبح تبدأ حياتنا الهانئة الهادئة، فنجلس قرب نار الموقد، ونحلق بإناء الشاي الكبير (الساموفار)، ويدخل علينا كلبنا «بولكان» وقد جلله الندى؛ لأنه بات تحت الطل في العراء أمام باب البيت، فيحيينا ببصبصة من ذنبه الكث الشعر ويجلس بيننا، كي ينعم بالدفء.. وكأنِّي بنا كنا نسمع خفق أجنحة السعادة وهي ترفرف فوقنا، فالمحصول وفير، والدفء يشملنا، وكل شيء يبعث على الرضى والطمأنينة.

* * *

ها هما عيناي وقد استهلتا بالدمع لذكرى تلك الأيام الخوالي، التي بدل الزمن المبدل أمنها حزنًا، وأنسها وحشة، وصفاءها كدرًا، وجمالها قبحًا، واطمئنانها بلاء وهمًّا مقيمًا.

أما لهذا الليل من آخر؟

إني لأتوجس من هذا الخريف شرًّا، وتحدثني نفسي أنه سيشهد ختام أيامي، فالمرض يلح عليَّ إلحاحًا شديدًا.

وما بي خشية الموت، ولكني لا أحب أن أدفن في أرض المدينة التي تضيق بالناس، ولا تبدي لهم إلا الكزازة والكنود.

وما حيلتي؟ إن العلة تزداد فوق صدري جثومًا، حتى لأخشى أن ألزم الفراش، وما غادرته إلا منذ أيام معدودات.

شد ما تثقل عليَّ الوحدة.. ففيدورا اليوم غائبة عن الدار في شأن من خاص شؤونها، فأسلمتني الوحدة الموحشة للكآبة والتشاؤم.. ولعل هذه الوحشة هي التي أملت عليَّ هذا الخطاب الطويل، فالكتابة إليك تؤنس وحدتي وتبدد وحشتي.

ولكن ما عندي من الورق قد نضب معينه، فلا محيص عن إنهائه عند هذا الحد.

لقد بقي من ثمن ثيابي والقبعة التي بعتها بالأمس روبل من فضة، أبعث به إليك كي تحاول إصلاح كسائك قدر ما تستطيع، وإن كان قد صار إلى حالة تستعصي على كل إصلاح.

أراني تعبت وأصابني الكلال.. ولست أدري لماذا يسرع إليَّ التعب وشيكًا لأقل مجهود.. حتى ما أدري ما أصنع لو ساق إليَّ الله عملًا.. ما أحسبه إلا قاتلي.

بربارا

٥ سبتمبر

يمامتي وعزيزتي ڤارينكا،

تداولتني هذا الصباح إحساسات شتى، حتى اضطربت نفسي، فرحت أنشد عند الأصيل شيئًا من الراحة والهدوء على الشاطئ.. وكان المساء حالك الظلمة، وفي الجو إثارة من الرطوبة.. ولم تكن الساعة مع هذا قد جاوزت السادسة.

وكانت صفحة السماء مغطاة بالغيوم، وعلى شاطئ الترعة زحمة من الناس تساوق زحمة السحاب في أفق الليل.

ومن عجب أن ذلك الجمع الحافل من الناس لم يكن فيه إلا كل وجه هضيم، وكل سحنة للكآبة عليها مسحة وذبول. وجميعهم من نفاية المجتمع بين نسوة ورجال، فليست ترعة «فونتانكا» من منازه السادة وأهل السمت!

وضقت بالمكان ورواده، فعدلت عنه إلى شوارع المدينة، فساقتني قدماي إلى شارع «جورو خوفايا».. فإذا أنوار وحركة وتجارة نافقة وواجهات جميلة وأزهار مونقة.

وقد حسبت والله أن كل هذا الجمال المختلف الألوان مما جعل للزينة ولذة العيون والأذواق، ولكني رأيت نفرًا من الناس يشترون ذلك الجمال، فيحصلون عليه لقاء ما يبذلونه من المال.

وأما أرض الشارع، فما أدري والله كيف كانت تتحمل كل هذه العربات المطهمة التي كانت تدرج فوقها غادية رائحة، في أبهة وخيلاء، فالزجاج لامع كأنه المرايا المصقولة، ومن خلفه الخز والديباج، يجلس بين ثناياه فتية موشاة صدورهم، وفي جنوبهم الأسياف الصقال.. ونساء كأنهن الأقمار، عليهن الدر والياقوت وريش الطاووس.. وعليهن جلال الإمارة.. فلعلهن من الأميرات، وإن لم يكنَّ أميرات فدوقات أو كونتات، وما أشوقني أن أرى أميرة أو كونتة رأي العيان عن كثب! ولكن هيهات! لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها!

لقد خطرت ببالي في تلك الساعة يا يمامتي الجميلة، وصديقتي العزيزة.. وما تخطرين ببالي، حتى يتنزى قلبي ألمًا لما تلقين من دهرك الغشوم وقضائك الظلوم!

بماذا تفضلك يا يمامتي أي واحدة من هاتيك المترفات الناعمات، وإنك لطيبة النحيزة حلوة الشمائل، سرية النفس، زكية الفؤاد، وإنك لحسناء كالبدر ليلة التم، رقيقة كالزهرة.

فلماذا يا إلهي تشقى من ليست للشقاء بأهل؟ لماذا ألتمس أسباب السعادة فتخطئها جميعًا سببًا بعد سبب؟

اغفري لي يا أختاه هذه الثورة المتمردة، فإني عالم أنها خطيئة وكفران لا يليق بالرجل الفاضل؛ لأنها من قبيل الأفكار التقدمية الملعونة.. ولكني لا أملك -مع هذا- إلا أن أتساءل مرة أ خرى: «لماذا يشقى أناس وينعم آخرون؟ لماذا يكتب الشقاء على قوم دون ذنب، ويكتب الرغد وخفض العيش لقوم آخرين دون استحقاق؟».

هذه والله حيرة العقول، وحيرة الضمائر والقلوب! فكم من مخلوق لا يساوي ملء أذنه نخالة، فلا فكر ولا إحساس ولا ذوق، هبطت عليه محاباة القدر، فقال له:

- اسمع يا هذا! لست شيئًا، ولكني أريد لك أن تتمتع بكل شيء! فهذا ميراث جدك الراحل يغلّ عليك أكداس الأموال، فكل واشرب، وكل ما اشتهيت فهو لك.. فهذه إرادتي، ولهذا ينبغي أن تعيش!

فلماذا لا تكون لك يا يمامتي عربة مطهمة، وأثواب من خزٍّ وديباج، فيستجدي القُواد والأمراء نظرة من عينيك الساحرتين، وأنت تتيهين عليهم بجمالك وشبابك النضير؟!

لماذا لا تجدين شبع بطنك من جوع، فلا تكدحي وأنت مريضة، حتى يشتد عليك الهزال وتصطلح عليك الأدواء؟!

لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

لو كان لك شيء من ذلك، فكان حسبي من الدنيا وما فيها ومن فيها أن أرمقك من بعيد، وأفرح لهنائك ومجدك.

ولكنك واأسفاه، فتاة يتيمة، بلا مال، وبلا معين، وبلا سند يقيك غائلة الدهر، وغائلة ذئاب البشر، أولئك الوحوش الذين لا ينظرون إليك إلا نظر الصائد للطير والباشق للعصفور، يأتمرون بك لأنك ضعيفة، مهيضة الجناح، بلا أبوين وبلا مال!

ألا قاتل الله الفقر يا أختاه!

وقاتل الله رجالًا يعدون على من لا حامي لها ولا راع، فهم أشباه رجال ولا رجال، وذئاب وبنات آوي في أجلاد آدميين!

ويا رحمتا لنا نحن عيال الله الفقراء من عباد الله الذين حباهم الثراء وسلبهم الأريحية والآباء!

خير منهم والله عازف الأرغول الذي يجهد شدقيه وصدره كي يرسل أنغامه العذاب سلوة للناس.. فهو إنسان كريم، يمنح الناس

لذة ومتاعًا، وليس ساطيًا عليهم يسلبهم أمنهم، متى أمن المقاومة والعقاب.

وأنا يا أختاه من طراز هذا العازف الفقير الهين الشأن، فأنا أيضًا أبذل طاقتي في إعطاء المجموع الذي أعيش فيه ثمرة جهدي المتواضعة، ولا أسطو على أحد باغيًا عاديًا.

* * *

لقد وقفت يا أختاه أرقب منذ أيام جماعة من الأطفال الحفاة العراة ينتفضون من شدة البرد، وأمهم العجوز -من أثر الفاقة لا بفعل السن- تستندي أكف المارة بقصة جوعهم وفاقتهم، وما نزل بهم من كوارث شداد.. فكان المارة يضيقون بها وينهرونها ويمضون في طريقهم ساخطين.. فعرفت يا أختاه أن ذوي اليسار لا يحبون من الفقير أن يصرخ في آذانهم بقصة شقائه، فذلك قمين أن يفسد عليهم جوهم الناعم وعيشهم الخفيض.. فالفقر شيء منكر قبيح.. والناس يكرهون المنكر والقبيح!

عفوًا لهذا الاستطراد، فإني أجد في كتابة جميع خواطري إليك راحة وسلوى، فقد أبت من نزهتي مكدود الخاطر، تعترض الغصص حلقي، ولا أجد للحياة طعمًا سائغًا، فإذا «جورشكوف» -ذلك الموظف المفصول من الخدمة الذي يعيش وأسرته كلها في غرفة واحدة من بيتنا، والذي مات أحد أولاده منذ مدة قريبة- إذا

بهذا الرجل يدخل غرفتي في استكانة ومذلة، ويطلب مني -مني أنا- أن أعطيه شيئًا لبنيه الذين أضر بهم الجوع!

أختاه! إن هذا فظيع!

لقد حاولت أن أفهمه أنني مثله رجل فقير، وأنني حاولت الحصول مثله على قرض فلم أفلح، ولكنه ظل يردد على سمعي جوع أولاده وحاجتهم إلى الخبز القفار منذ يومين، وأن سائر السكَّان يضيقون به ولا يفهمون ولا يرحمون.. فتذكرت أن الناس لا يفهمونني ولا يرقون لفقري وحاجتي، بل يهزأون بي.. فأعطيته العشرين كوبكًا التي كنت قد حرمت نفسك منها لتبعثي إليَّ بها.. فجعل يشكرني بعبارات متعثرة.

فسألته كيف انتهى إلى هذا الفقر المدقع؟ فحكى لي قصته وإنها لعجيبة من عجائب الظلم وسوء الطالع.. فقد كان يعمل في أحد دواوين الحكومة، عملًا يتصل بأعمال المقاولين الذين ينشئون الدور الحكومية، فزور ذلك المقاول في أوراق العمل دون أن يدري جورشكوف المسكين، فلما ضبط التزوير جر المقاول الخبيث جورشكوف معه إلى التهمة، ففُصل من العمل.. فقدم جورشكوف تظلمًا ورفع إلى القضاء قضية تعويض ضد المقاول.. ولكن هذه الأمور كما تعلمين رهن بالوساطات والنفوذ.. وجورشكوف مثلنا لا نفوذ له، وليس محسوبًا على أحد من ذوي النفوذ.. فانقضت سنوات دون أن يفصل في هذه القضية التي لا تزال تتعثر أمام دور المحاكم.

ومن يدري؟ إن الأمل في إنصاف أمثاله جد قليل. وإني لأرق له رقة شديدة، حتى ما أدري كيف سيواتيني النوم هذه الليلة؟

إن هذا المسكين لا يجد عملًا؛ لأن فصله من الخدمة سلبه حقه في الثقة به ولو كان رجلًا شريفًا.. والبطون لا ترحم يا أختاه!

وقد ساءت صحته في الشهور الأخيرة، ولا سيما بعد موت ولده، وأصابه داء لا أمل في شفائه منه.. فهو أشقى مني بكثير، وشقاؤه يزعجني ويقض مضجعي، ويجعلني أكرر سؤالي:

- رباه! لماذا كل هذا الشقاء؟ وماذا يمكن أن تكون الحكمة منه؟!

ولكني أثوب إلى رشدي وأستغفره سبحانه.. إنه هو العزيز الحكيم والرحمن الرحيم.

والآن سلامًا يا يمامتي.. ومتعك الله بالعافية.. فأنت ريحانتي التي أستروح منها الحياة حين يخطر ذكرك ببالي المكدود.. وحتى إذا تألمت لك حين أذكرك، فما أعذبه من ألم؛ لأنك موضوعه الجميل يا صديقتي ونور أيامي.

مقار ديوفشكين

* * *

يد الله

٩ سبتمبر

أختي بربارا ألكسيفنا،

أكتب إليك وأنا في حال من الاضطراب ليس عليها من مزيد؛ فقد هزني الحادث الذي مر بي اليوم هزًّا عنيفًا.. حتى ما أدري كيف أبدأ بالإفضاء به إليك، فهو شيء غير منتظر، وليست له في ظننا سابقة بشير، وإن كنت قد رأيت في المنام منذ ليال رؤيا تبعث على الارتياح.. وأحسب هذا الذي وقع لي اليوم تأويلها، والله أعلم!

ألم أقل لك في خطابي إن الله هو العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم؟

هو كذلك سبحانه ولا شك!

بالأمس حضر إلى مكتبي «تيموثاوس إيفانوفتش» رئيس الإدارة، وتواضع فكلفني شخصيًّا بكتابة وثيقة هامة عاجلة للعرض

على سعادة المدير العام، وأوصاني أن أُجوِّد الخط، وأنمق التنسيق، فكتبتها على خير ما وسعني في تلك الساعة، فقد كنت بالأمس يا يمامتي على غير ما يرام، ضيق صدر وشرود ذهن.. وكانت صورتك لا تفارق مخيلتي.

ولست أدري أي شيطان من شياطين النحس ركب يدي في تلك الساعة، فنسيت سطرًا كاملًا، فأصبحت الوثيقة كلها ولا معنى لها.. دون أن يفطن إلى ذلك أحد، ويظهر أن الوقت لم يتسع أمس لعرضها على المدير العام، فعرضت عليه في أول هذا النهار.

وذهبت أنا اليوم إلى المكتب خالي الذهن، فجلست كالعادة وانصرفت إلى الكتابة والتحبير.. ولا أكتمك أن أعصابي قد أضحت في المدة الأخيرة شديدة التوتر، وصرت أتجنب النظر إلى وجوه الناس؛ حتى لا تلتقي عيناي بعيونهم. وإذا أحدث كرسيٌّ من كراسي الموظفين صوتًا خفيفًا اضطربت له وقفزت من مقعدي وجلًا!

بيد أنني كنت هذا الصباح في حالة أشد نكرًا من مألوف أحوالي، حتى أن الكاتب «أكيموفتش» -وهو من شرار الخلق وأكثرهم رقاعة- سألني:

- ماذا بك اليوم يا مقار؟ إنك لتبدو مقلوب السحنة!

ثم قلب سحنته ليقلدني، فانفجر جميع من في المكتب

ضاحكين، وشعرت بالعرق يتصبب من جبيني في هذا الجو البارد.. وانكمشت في مكاني خزيًا، وأغمضت أجفاني كي لا أراهم وهم يتلوون من شدة الضحك. فتلك عادتي إذا سخروا مني، فالمقاومة تغريهم بالاستمرار في العبث، والإغضاء يصرفهم عني.

وفي هذه اللحظة بالذات سمعت ضجة في الدهليز الخارجي، ووقع أقدام تجري من هنا وهناك، ثم سمعت ما أنكرته أول الأمر، وعزوته إلى وهم من أثر ما حدث حولي من ألاعيب أولئك الخبثاء.. ولكن الصوت تكرر وازداد قربًا، فأيقنت أن أذني لم تخدعني.. وأن هناك من يناديني فعلًا وصدقًا، فاشتدت عندئذ دقات قلبي، واستولى عليَّ فزع جائح.

ولست أدري على وجه التحقيق علة هذا الخوف الذي أصابني، ولعله راجع إلى أنني كنت دائمًا رجلًا مغمورًا لا يكترث لي أحد، ولم آلف أن يناديني أحد ليسدي إليَّ يدًا، فما يذكروننني إلا بالسوء!

وبلغ من هلعي أنني زدت تشبثًا بمقعدي، وتجاهلت أنني سمعت النداء باسمي مثنى وثلاث، ولكن ضجة المنادين اقتربت مني حتى صارت لصق أذني.

وصاح فيها أحدهم حتى أوشك أن يخرقها بصياحه:

- ديوفشكين. ديوفشكين.. هيا يا رجل، أسرعْ! فأنت مطلوب في مكتب سعادة المدير العام.

- المدير العام؟

- أجل! فقد أفسدت وثيقة الأمس، ونجم عن ذلك بلاء عظيم.

فأحسست كأن الصواعق قد انقضت على أم رأسي انقضاضًا، وسرت البرودة إلى أطرافي، وشلني الفزع الأكبر.. ولكنهم لم يدعوا إليَّ فرصة للراحة واسترداد جأشي الذي أطاشته الصدمة المباغتة، فسعادة المدير العام في الانتظار، ولا ينبغي أن يظل سعادته في الانتظار.

ومشيت كما يمشي حالم في المنام، غير شاعر بشيء مما يدور حولي، فأنا أقرب إلى الموتى مني إلى الأحياء.. فجازوا بي حجرة فسيحة، من داخلها أخرى، ومن داخل تلك ثالثة هي مكتب سعادة المدير العام، فما شعرت إلا وأنا قائم أمامه، بل «مزروع» أمامه زرعًا، فقد كانت قدماي كالغائصتين في أرض الحجرة الفاخرة.

ومن أعظم المحال أن أصف لك شعوري وفكري في ذلك الموقف العصيب، فما أذكر أنني كنت أعي شيئًا، سوى مثولي أمام صاحب السعادة، الذي كان محوطًا بكوكبة من رؤساء الإدارات والأقلام.

وبلغ بي الذهول أنني لم أسلم على صاحب السعادة، بل وقفت هكذا كالجماد، فاغر الفم محملق العينين، وركبتاي تصطكان من هول الموقف اصطكاكًا.

وحدث في هذه اللحظة ما زاد موقفي سوءًا، بيني وبين نفسي على الأقل، فقد رفعت عيني، فإذا أمامي مرآة كبيرة بطول الحائط، رأيت فيها ما أطار البقية الباقية من صوابي، رأيت صورتي بما تتسم به من ملبس زريٍّ ومنظر منفر.

وأنت تعلمين يا أختاه أنني كنت أتسلل حتى لا ألفت إليَّ أنظار زملائي، أما صاحب السعادة فلم يدخل في حسابي من قبل؛ لأنه لا يمكن يعلم على الأرجح وجودي تحت إدارته السنية.

وبدأ صاحب السعادة الكلام بصوت ينم عن استياء شديد وغضب مكتوم، قال:

- كيف وقع هذا منك أيها السيد؟ أين كانت عيناك حين كتبت هذا التخليط؟ هذه وثيقة هامة من وثائق حكومة صاحب الجلالة المقدسة قيصر جميع البلاد الروسية، وقد طلبتها على وجه الاستعجال، فكيف سمحت لنفسك أن تفسدها على هذا النحو؟ فيم كنت تفكر أيها السيد وأنت تكتبها؟ وأي خاطر كان أولى بذهنك من عمل الدولة؟

والتفت صاحب السعادة إلى من حوله من رجال الحاشية، فهزوا رؤوسهم هزة أسف عميق، حتى خيل إليَّ أنني أحدثت الحدث الذي لم يسبق من قبل، وسمعت -من خلال الضباب الذي غشي سمعي وبصري- قائلًا منهم يقول:

- يا لك من مهمل يجر علينا إهمالك أشد المتاعب!

ففتحت يدي، أهم أن أقول شيئًا على سبيل الاعتذار، ولكني لم أدر ماذا أقول، فسكت وإن ظل فمي مفتوحًا! واعتراني خجل شديد وفزع حتى لقد فكرت في الفرار، ولكن أنى لي أن أفر وأنا كالفأر بين عشرات الهررة الواعية!

وحدث في هذه اللحظة، وأنا أغالب فكرة الفرار ما أرتعد له الآن فرقًا حتى ليكاد القلم يسقط من يدي! فقد سقط زرٌّ من أزرار كسائي المعدنية، كان معلقًا بخيط واحد واهٍ، ويظهر أنني لمسته بيدي فانفلت وسقط على الأرض، وجعل يقفز ويتدحرج محدثًا صوتًا خالته أذناي دوي مدفع أو أهول وقعًا.

وهل تدرين أين اختار هذا الزر اللعين أن يستقر؟ بين قدمي حضرة صاحب السعادة المدير العام.. فكأن سقوط هذا الزر، واستقراره بين قدمي سعادته هو كل ما استطعت تقديمه لسعادته من العذر عن خطئي الجسيم.

وكأنا نبه هذا الزر سعادة المدير العام إلى بشاعة مظهري، فجعل يصعد بصره فيَّ، وكأنما أفقدتني نظرته الفاحصة بقية عقلي، فانحنيت لألتقط الزر، ولكن الزر اللعين جعل يفلت من أصابعي ويدور ويتدحرج، وأنا ألاحقه في إصرار، وقد زودتني الخيبة اضطرابًا على اضطراب.. فدارت الحجرة من حولي، وجعلت أصوات غامضة تطن في أذني،

وخيل إليَّ أني أسمع فالدوني خادم البيت وهو يهزأ بي ساخرًا.. وشعرت أن كياني الرسمي والإنساني كله قد أُهدر، وأنني قد مت موتًا مدنيًّا.

وأخيرًا استطعت القبض على الزر المشؤوم، فرحت أحاول في بلاهة شديدة أن أعيده سيرته الأولى في موضعه من كسائي، كأن ذلك أمرٌ في المقدور.

وجعل المدير يحملق فيَّ برهة، ثم التفت إلى رئيسي المباشر وقال له:

- ما هذا؟ ألا ترى كيف يبدو؟ ماذا به؟

فقال الرجل:

- إنه لم يتقدم بأي تظلم من سوء حاله، وهو يتقاضى مرتبًا عادلًا بحسب القدر القانوني.. أما مسلكه في العمل خلال خدمته الطويلة فمسلك نموذجيٌّ.

- أليس في المقدور مساعدته بشيء.. ولو بقرض يحسب من مرتبه مثلًا؟

- لقد قبض مرتبه جملة شهور سلفًا.. ويظهر أنه يعاني مشاكل خاصة تسبب له عناء كبيرًا، فصفحة خدمته نقية خالية من مثل هذا الخطأ.

وكان الدم يندفع إلى وجهي وأنا أسمع هذه المناقشة التي تدور حول عملي، وحول خصوصياتي، حتى كأن لفحة من نار السعير قد

ناشت وجهي.. فتمنيت لو وافاني الموت وأنا في مكاني ذاك.

فلما انتهى هذا الحوار الهامس، قال سعادة المدير بصوت عال:

- أعدوا صورة أخرى من هذه الوثيقة، وبغاية السرعة. وأنت يا ديوفشكين تعال هنا إلى جواري.. أعد كتابة هذه الوثيقة ولا تخطئ في النقل هذه المرة.. وبهذه المناسبة..

ثم التفت إلى جميع من حوله، فألقى إلى كل واحد منهم أمرًا عاجلًا، فانصرفوا مسرعين، حتى بقيت معه وحدي، فأخرج حافظة نقوده قدم لي منها مائة روبل وهو يقول لي:

- هذا ما أستطيع إعطاءك يا صديقي، فخذه ولا تتحرج، فهو قرض ترده لي متى استطعت.

ودس الورقة في يدي، وأنا صامت لا أستطيع نطقًا، وإن كانت كل جارحة من جوارح بدني ترتجف ارتجافًا شديدًا.. فانحنيت على يده أهم أن أقبّلها، فتضرج وجهه بحمرة قانية، وشد على يدي وهزها هزة وليٍّ حميم، كما يفعل الأكفاء.. فشعرت كأنني كبرت بعد صغار، وارتفعت بعد اتضاع. ثم قال لي في لطف:

- امض الآن يا صاحبي، فقد فعلت لك ما وسعني، وتحرز من الخطأ في المستقبل. أما هذه المرة فعفا الله عما سلف.

لقد رد الرجل عليَّ ما ضاع من كرامتي وشجاعتي الأدبية وتقديري لنفسي، ورد عليَّ أيضًا أسباب العيش وصلاح الحال.

وهاك الآن يا أختاه ما قررته: سأطلب منك ومن فيدورا أن تذكرا سعادة المدير في صلاتكما كل يوم. ذلك حقي عندكما، حق الوالد على بنيه، فأنتما لي بديل من الأسرة والولد.

وأي عجب في هذا الطلب؟ ألست كنت ميتًا فأحيا موات نفسي، وكنت هينًا فرفع قدري وأعلى رأسي، وكنت مضيعًا لا ألم على أشتات فكري، فرفع عني هذه اللعنة، وكنت سيئ الظن بالناس، وسوء ظني بالناس يحزنني فوق حزني لسوء حالي، فأعاد إليَّ الثقة بالناس، وبالخير، وبأصبع العناية التي كنت أفتقدها في شؤون البشر؟

* * *

عفوك يا أختاه إذا كنت قد أطلت، فإني أحس في نفسي اضطرابًا شديدًا، وما ظنك بمن فقد البصر ففتحت عيناه فجأة على النور في وهج الظهيرة؟

إن قلبي يكاد ينشق من شدة الخفقان، ويكاد يطير عن أضالعي لكثرة ما يقيمه الفرح ويقعده.. وأحس إلى جانب هذا خدرًا في أعضاء جسمي وتفككًا في أوصالي، كشعور المرء حين يقطع مرحلة طويلة وهو راجل، حتى إذا بلغ مراده أحس بما شغلته الرحلة عن الإحساس به من التعب والنصب.

وإني أرسل إليك مع هذه السطور خمسة وأربعين روبلًا،

وسأعطي لربة البيت عشرين روبلًا، وسأصلح شأن ثيابي بعشرين روبلًا مثلها، ويبقى لي بعد ذلك خمسة عشر روبلًا لنفقة طعامي وما إليه.

أما الآن فسآوي إلى فراشي، لعلني أستجم من هذه الهزات التي توالت عليَّ في نقائضها العنيفة هذا الصباح.

وسأجتهد في زيارتك قريبًا، أما الآن فما أراني أصلح لذلك؛ لأن ما بي هو السكر ولا خمر، فما تلم جارحة مني بجارة إلا بجهد جهيد.

وأختم رسالتي يا أختاه بشكر الله، فإنه حقًّا هو العزيز الحكيم، السميع العليم، الرحمن الرحيم.

وإني لك يا يمامتي المعبودة.

الولي الصادق الحميم

مقار ديوفشكين

١٠ سبتمبر

عزيزي العزيز مقار،

أسعدني ما أسعدك من حسن الطالع، وإن مديرك يا صديقي لأهل لكل صالحة وكل شكران.. والحمد لله الذي أتاح لك شيئًا من هدوء البال بعد الذي عانيت من العناء هذا الزمن الطويل.

ولكني أستحلفك بالله، وبكل عزيز لديك، ألا تعود إلى بسط يدك والتبذير فيما لا لزوم له، وعليك بالقصد في النفقة ما وسعك القصد، واقنع بعيش الكفاف، ذلك أجمل بك وأحسن عقبى.

واجعل همك منذ اليوم أن تدخر شيئًا من دخلك، حتى لا تعود إلى ما كنت فيه من ضائقة تسقط المروءة وتريق ماء الوجه إذا حزبك أمر من الأمور على غير انتظار.

أما أنا يا صديقي، فلا تجشم نفسك معاناة ما يكتنف حياتي من الشدائد، وما كان ينبغي أن تبعث إليَّ بهذا المبلغ الجسيم، فلست أطمع في شيء ليس عندي، وأنا بحياتي راضية والحمد لله.. وليس للمال عندي نفع إلا في النقلة من هذا البيت، ولكن فيدورا ستقبض عن قريب مبلغًا متجمدًا لها يكفي لهذا الغرض وزيادة.

وإني أحتفظ مع هذا من هديتك بعشرين روبلًا، وأرد إليك الباقي شاكرة لك شعورك النبيل، ومكررة على سمعك نصحي أن تقتصد في نفقاتك، وألا تبسط يدك كل البسط.

وكنت أود أن أسترسل في الكتابة إليك بهذه المناسبة السعيدة، لولا ما أشعر به من الضعف الشديد، فقد لزمت بالأمس فراشي ولم أبرحه طول النهار.. وهأنذي اليوم أحس بالتعب ينهك قواي.

لا تنس وعدك لي بالزيارة، فأنا في الانتظار.

بربارا

١١ سبتمبر

عزيزتي العزيزة،

أستحلفك بالله يا عزيزتي وأضرع إليك وأتوسل ألا تتخلي الآن عني، وقد بدأت المقادير تبتسم لي.. أم تأبين إلا الكدر، وقد صفا العيش وطاب ما كان خبيثًا من مهاد القدر؟

يمامتي،

لا تعيري فيدورا سمعك، وثقي أنني سأكون طوع بنانك، وعند أمرك، ولكن لا تتركيني وحيدًا في الظلام يا نور أيامي.. سأتحرى الاستقامة وسمت اللياقة والكرامة حتى ترضي عني.. وستستمر الرسائل بيننا سفيرًا أمينًا ينقل أفكارنا وخواطرنا، ويوثق ما بيننا من صداقة طاهرة.. ولكنها ستكون منذ اليوم رسائل صفاء لا رسائل أحزان وأرزاء.. وسنكون صديقين في السراء كما كنا صديقين في الضراء.. أم تأبين عليَّ تمام النعمة، وتسعين إلى تحسين على أيام المسغبة والفاقة؛ لأنها كانت تجمعنا في عروة وثقى؟

هل لديك ما يكفيك من الخشب؟ فالبرد شديد في المساء، ولا تؤمن غدرات هذا الجو المتقلب، وأخشى أن تصيبك نازلة من نوازل البرد.

آه يا ڤارينكا! لو تعلمين كم أنتفض فرقًا وفزعًا لمجرد تفكيري في احتمال مرضك، إني حريٌّ أن أموت حزنًا لو أصابك مكروه يا ڤارينكا.

ولو سمعتني أصلي يا ڤارينكا، لعلمت كيف أدعو لك الله من كل قلبي، وكيف أبتهل إليه أن يبقيك لي.. والحق أنني لا أصلي إلا من أجلك، ومن أجل سعادة المدير، بارك الله في عمره!

وهل عندك جوارب من الصوف؟ خبريني الحقيقة، فصحتك أثمن شيء في الوجود.. ولا تتحرجي من التصريح لي بما ينقصك يا أختاه.

لقد مضت أيام النحس إلى غير رجعة.

تناولت اليوم خطاباتك جميعًا، فقبلتها، واحدًا واحدًا؛ لأنها كانت عزائي الوحيد في أيام تعاستي ونكسي.. فلولاك يا يمامتي لقضيت يأسًا وأسفًا.

والآن وداعًا يا أختاه، فقد وصفوا لي كساء جديدًا، أعني أنه في حكم الجديد، وإني ذاهب من توي لمشاهدته.

صديقك الصادق الولاء

مقار ديوفشكين

* * *

عند صفو الليالي

١٥ سبتمبر

عزيزي السيد مقار،

إني اليوم في أقصى حالات الاضطراب والحيرة، فقد جاءتني أنباء تحمل في طواياها الهول لي، فالسيد «بيكوف» -وأنت تعلم تاريخه المشؤوم معي- موجود في بطرسبرج، وقد لقيته فيدورا بالأمس، فلما رآها وقف عربته ودنا منها، وسألها عن مقامها الآن، ودقق في تحري العنوان.

وقد رفضت «فيدورا» أن تعيره العنوان أول الأمر، ولكنه عرَّض بي تعريضًا ساخرًا، فلم تطق المسكينة صبرًا، وراحت تمطره في وسط الشارع وابلًا من الاتهامات، وجابهته بما سببه لي -أنا اليتيمة المهيضة الجناح- من الكوارث والأحزان.

وانصرفت فيدورا راجعة إلى البيت، وروت لي ما وقع بينهما،

فاستخلصنا من كلامه أنه لا يعرف مقرنا، وحمدنا الله على ذلك.. ولكن ما كدت أخرج ساعة الأصيل إلى السوق، حتى دخل حجرتنا، فقد سأل «آنا فيودروفنا» وعرف منها العنوان، ثم عنى بدراسة المنطقة وأحوال سكَّانها قبل أن يطرق بابي.

وبعد أن قلب بين يديه بعض الملابس التي أحكيها وأطرزها، سأل فيدورا بغير مقدمات ذلك السؤال المباغت:

– من هذا الموظف الذي تربطكما به كل هذه الصداقة المتينة الأسباب؟

واتفق مرورك في هذه اللحظة عبر فناء الدار، فأشارت فيدورا بسبابتها نحوك، فألقى عليك نظرة خاطفة ثم ابتسم! فرجته فيدورا حينئذ أن ينصرف؛ لأن الأحزان والأشجان تضنيني، وصحتي لا تسمح لي بمثل هذا الموقف العصيب إذا أنا عدتُ قبل انصرافه ورأيته في حجرتي.

فسكت لحظة، ثم قال إنه ما جاء لغاية، بل لمجرد الزيارة، ثم عرض على فيدورا خمسة وعشرين روبلًا، فرفضت قبولها بطبيعة الحال.

فما معنى هذه الزيارة؟ وماذا يريد منَّا؟ وإني لأعجب كيف تبلغه أخبارنا، فهو فيما يلوح عليم بأحوالنا كافة؟

إني لحائرة وأخشى أن يعود إلى مثل هذه الزيارة في حضوري..

وما أشد جزعي لمجرد التفكير في هذا الأمر.. فعندما روت لي فيدورا ما حدث عند عودتي، انتابني الذعر، وأوشكت أن يغشى عليَّ فزعًا!

ماذا يريد بي أولئك الناس بعد الذي أحدثوا في حياتي من الاضطراب؟

إني لا أريد أن أعرفهم، ولا أحب أن يذكرني بهم مُذَكِّرٌ، وإن كان النسيان واأسفاه من رابع المستحيلات!

لقد اضطربت أعصابي وأفلت مني زمامها، وبت أتوهم في كل لحظة أني سأراه ماثلًا أمامي.. ولست أدري ماذا سيحدث لي لو أن هذا وقع فعلًا.

ترى ماذا يخبئ لي القدر بعد الذي كان منه فيما سلف من الدهر؟

أتوسل إليك بحق السماء أن تخف لزيارتي أيها الصديق.. تعال، فإني أحوج ما أكون إلى قربك.

بربارا

١٨ سبتمبر

أختي العزيزة،

وقع في بيتنا اليوم حادث من أعجب الحوادث وأدعاها للحزن والأسى.

أنتِ تعرفين جورشكوف، الموظف المفصول ذا العيال، الذي مات ولده منذ شهور، وأعياه أن يقوت من بقي منهم.. هذا الرجل المظلوم قد أنصفه القضاء أخيرًا، بعد أن استنفد جهد البشر والملائكة في مغالبة الجوع.. وحكمت المحكمة له أمس بتعويض كبير.

وذهب الرجل اليوم إلى المحكمة ليسأل عن نتيجة الحكم، فزفوا إليه هذه البشرى، فعاد إلى البيت في الساعة الثالثة بوجه شاحب في بياض الثلج، وكانت شفتاه تختلجان اختلاجًا لا إرادة له فيه، ولا حيلة له في رده عنهما.. ولكنه مع هذا كان يبتسم ابتسامة يسهم فيها كيانه كله، على ما به من اكفهرار وتخاذل.

وقبَّل الرجل زوجته وولديه، وأسرعنا كلنا إلى حجرتهم لنزف إليه التهنئة الحارة على هذه النعمة الطارئة، التي أنقذته من العوز، وانتشلته من المذلة ومسحت عن جبينه ما كان عالقًا به من وصمة التدليس.

وسر المسكين بتهنئتنا، حتى لم يكن يدري كيف يشكرنا، فجعل يحيي باليمين والشمال، ويشد على يد كل واحد منا أكثر من مرة واحدة؛ لفرط ما به من اضطراب وذهول.

وخيل لي أن السعادة التي جاءته على يأس قد أطالت من قامته، ومدت من هامته، فانتصب عوده بعد تطامن.. وبدا لي أن الدموع

التي كانت تنهل دوامًا من عينيه قد انقطع مسيلها.

أما حديثه؛ فكان نشازًا لا تلم منه عبارة بعبارة، وأما حركاته فكانت نزغات لا ضابط لها ولا هدف، يتناول الشيء لغير داع، ثم يلقي به من يده لغير سبب، ويقوم ويقعد، ويشكر ويتحسر. ثم انطلق بغتة يبكي بكاء مرًّا، فما بقيت عين في الحجرة إلا ذرفت جمعها رقة لهذا المسكين.. ولما همَّ أحد السكَّان بالتسرية عنه، وأخذ يربت على كتفيه مواسيًا، نحى يده عنه بحركة تفيض أنفة، لم أكن أعهدها فيه -والحق يقال- من قبل..

شد ما تغير الظروف من أحوال الناس وخلائقهم يا أختاه! لقد طلبت امرأته من ربة البيت غداءً ممتازًا لذلك اليوم، وانصرفنا إلى حجراتنا.. فراح جورشكوف يدخل عند كل واحد منا برهة، يثرثر في غير محصل، لمجرد الحركة والكلام، إلى أن يحين موعد الغداء، وما كان يدخل حجرة أحد من قبل.

فلما تم إعداد الطعام، أقبلت عليه تلك الأسرة التي طال بها الحرمان إقبالًا متوقعًا مفهومًا، فلما انتهوا منه، قال الرجل لامرأته:

- أريد أن أستريح الآن قليلًا.

ثم استلقى على الفراش، ونادى إليه ابنته فداعب بأنامله شعرها الأثيث، ثم التفت إلى امرأته وسألها:

- وباتينكا يا امرأة، أين هو؟

فرسمت المرأة على وجهها علامة الصليب، وقالت له في ذعر:

- باتينكا مات كما تعلم.

فابتسم وقال:

- أجل، أعرف هذا، فهو الآن في ملكوت السموات!

وأدركت المرأة أن المفاجأة السارة هزت أعصاب الرجل، فقالت له:

- أرى لك أن تنام قليلًا حتى تستريح أعصابك شيئًا ما.

فاستدبرها وسكنت حركته برهة، ثم التفت إليها ثانية وحرك شفتيه بشيء لم تتبينه، فسألته:

- ماذا يا عزيزي؟

بيد أنه لم يجبها، فاستأنت برهة، فلما لم يقل شيئًا علمت أنه نام، فقامت لزيارة ربة البيت، وقضت معها في الحديث ساعة قصيرة، ثم عادت إلى حجرتها، فأدهشها أن تجد زوجها لا يزال حيث تركته نائمًا لم يتحرك في رقدته، فعزت ذلك إلى ثقل النعاس، وتناولت خيطًا فجعلت تغزله نحوًا من نصف الساعة.. تنبهت بعدها من شرود اعتراها، فاستغرقها وهي تغزل، فإذا الرجل على حاله الأول.. وراعها الصمت الثقيل الذي يسود الغرفة، فاقتربت من الفراش وكشفت عن زوجها الغطاء.. فإذا هو قد مات!

شد ما هصرت قلبي هذه الميتة المباغتة.. كأنما كلفته نصفته

أنفاس حياته، وكأنما حرام على المظلوم المكروب أن يعرف لغير الغبن والفاقة طعمًا.

يا بئس للدنيا! أكذلك يمضي الناس عنها بين غمضة عين وانتباهتها؟ ألا أمان فيها لشيء، ولا ضمان لديها لأمر؟

هل حقًّا يموت الناس هكذا، بغير مقدمات، وعلى غير انتظار؟

إني لحزين.

مقار ديوفشكين

* * *

ثمالة الكأس

٢٣ سبتمبر

صديقي الأعز،

طال عهدي بعدم الكتابة إليك، فقد حدثت شواغل حالت بيني وبين ما كنت أريده من الحديث إليك على صفحات القرطاس!

فأمس الأول زارنا «بيكوف»، وكنت وحدي هذه المرة؛ لأن فيدورا كانت قد خرجت إلى السوق.. ففتحت أنا الباب حين طرقه، فما وقع عليه نظري حتى صعقت ولم أحر نطقًا ولا حراكًا، فدخل وهو يقهقه بالضحك على مألوف عادته، وتناول مقعدًا فاستوى عليه دون انتظار دعوة مني.. وبقيت أنا مسمرة عند الباب برهة، ثم لذت بركن قصيٍّ، وراء مائدة الحياكة، وانصرفت إلى عملي، وقد علت الصفرة محياي!

فجعل يتفحصني بنظره، ولا شك أنه وجدني قد تغيرت كثيرًا

عما عهدني منذ بضع سنين.. ثم أخذ يبادلني حديثًا سهلًا، يخالف بين عباراته بالدعابات والضحكات العالية ساعة من الزمن. فلم همَّ بالانصراف تناول يدي بين يديه، وقال لي بالحرف الواحد:

- أراني يا بربارا مضطرًّا إلى الاعتراف لك أن «آنا فيدروفنا» قريبتك وصديقتي، امرأة تستحق كل زراية ونكال.

ثم نعتها نعتًا لا أستطيع كتابته إليك؛ لأنه مما تنبو عنه الأسماع... واستطرد قائلًا:

- لقد أودت بشرف ابنة عمٍّ لك، وأفسدت حياتك، وكنت أنا في الحالين نذلًا خسيسًا.. ولكن هذا قضاء جار على الأكثرين ولست فيه فريدة.

ثم انطلق يضحك ضحكته المدوية، واعتذر لي بأنه رجل أعمال لا يحسن الكلام، وأن مراده من هذا الحديث أن يبين لي حسن نواياه، ويقظة ضميره!

وانتقل من ذلك إلى مباغتتي بطلب يدي!

- إني رجل موسر، وأرى من واجبي أن أرد عليك بالزواج اعتبارك وشرفك الذي شاركت في إهداره.

وراح يطنب لي في وصف مزارعه التي ينوي الإخلاد إليها بعد الزواج، ليتفرغ للصيد والقنص.. وإنجاب ذرية صالحة ترث اسمه وثروته من بعده.

وعرَّج بعد ذلك على ما يراه من سوء حالي، وفاقتي، واضمحلال صحتي.. وسألني عن حاجتي من المال ليقضيها لي.

وكان هذا العرض المباغت قد هز مشاعري هزًّا عنيفًا، فانطلقت أنشج بالبكاء دون أن أدري لبكائي سببًا، فظن أنني أبكي شكرًا له وعرفانًا لجميله الذي يسديه إليَّ بذلك الزواج، فجعل يقول لي باسمًا مترفقًا:

– لقد كنت في ظني على الدوام فتاة كريمة النفس طيبة القلب، مثقفة ذكية، ولكني لم أشأ أن أقدم على هذه الخطوة قبل أن أتثبت من استقامتك، وحسن مسلكك، على رغم ما تعانينه من شدة وضيق.

ثم شرع يلقي عليَّ أسئلة شتى عنك، فلما أجبته قال:

– إني واثق من صدق قولك، فقد سألت عن هذا الرجل، فقيل لي إنه رجل مهذب وذو خلق.. وتأكدت أنه أحسن القيام على شأنك وصيانة شرفك، ولست أحب أن يثقل دينه هذا على عنقي، فاستخبريه هل تكفي خمسمائة روبل لتعويضه عما تجشمه في سبيلك من مشاق؟

فلما قلت له إن خدماتك لي من طراز لا يمكن أن يقدر بمال، استشاط غضبًا، وجعل يتهمني بالبلاهة والخرق!

وانصرف بعد أن أوصاني بالتفكير فيما عرضه عليَّ من أمر الزواج، فهو لا يحب القرارات المبتسرة في مثل هذه الشؤون

الخطيرة.. فإذا راق لي الزواج منه، فبها ونعمت، وإلا فإنه سيكون في حلٍّ من الزواج بامرأة من أهل الثراء والتجارة الواسعة في موسكو.

ودس في يدي قبل انصرافه خمسمائة روبل، فلما أبيت أن آخذها قال:

- بل خذيها لتشتري بها شيئًا من الحلوى تتسلين بها في سهرك.. وانتظري حتى تتزوجيني، وسترين حينئذ كيف يصير لك الشحم واللحم بعد الهزال والدوار.

* * *

وقد فكرت يا صديقي في حديثه كثيرًا، حتى أنهكني التفكير، ثم انتهيت إلى قرار أخير.

وذلك القرار يا صديقي هو القبول.

وهل أمامي غير هذا الطريق إذا أردت استرداد اعتباري ومحو العار عن شرفي؟ إنه الرجل الوحيد في هذه الحياة الذي في وسعه أن يرد إليَّ كرامتي العذرية التي أهدرها.

ثم لا تنس أن زواجي به سيقيلني من وهدة الفقر، ويؤمن مستقبلي، ذلك المستقبل الأسود الذي يطل برأسه من ثنايا الحاضر الأغبر.

وفيدورا تلح عليَّ في القبول.. فهي فرصتي الفذة لإنقاذ شرفي، وإنقاذ صحتي وضمان عيشي كذلك.. وليست مسألة الصحة من

الهينات، فأنت يا صديقي تعرف ضعف بنيتي، فالعمل ينهكني، ولا بد لي من العمل كي أعيش كما تعلم..

وإذا أفلتت هذه الفرصة الشريفة -ولا أقول إنها مشرفة!- فمن عساه يتقدم لطلب يد فتاة يتيمة فقيرة تنوشها العلة وتفسد نضرتها؟!

الحق يا صديقي أن الأمر لا خيرة لي فيه.. وإنما هو طريق واحد.. وقد عولت على سلوك ذلك الطريق.

وإذا كنت لم أطلب إليك الإدلاء برأيك في هذا الأمر، فذلك لأني آثرت أن أحمل تبعة البت فيه وحدي.. وسأبلغ بيكوف قراري هذا منذ اليوم.

ولست غافلة عن جميع جوانب الموضوع الذي قطعت فيه برأيي.. فأنا عالمة تمام العلم أني لا أحب بيكوف، وأنه لا يحبني.. ولكني مقدرة أنه يقدرني، وقد تبث له المعاشرة التقدير في قلبي؛ لأنه فيما يقال رجل طيب شهم.. وهل أطمع في أكثر من مودة وتقدير متبادلين؟ ذلك حسبي يا صديقي من حظوظ الحياة.

وإني واثقة من أنك ستقدر الموقف حق قدره، وستنظر إليه بما عهد فيك من الإيثار النبيل.. فلا تحاول إثنائي عن عزمي، فقد تألمت كثيرًا لفكرة فراقك، ولكني وجدت العقل والحزم في جانب القبول، فاخترت جانب الحزم والعقل، مطمعة إلى نبلك المعهود.

ها هو ذا بيكوف قد حضر، فأجتزئ الآن بهذا القدر؛ لأنه مصرٌّ على عقد الزواج في بضعة أيام، فأعماله لا تسمح له بالبقاء هنا طويلًا.

بربارا

٢٣ سبتمبر

أختي بربارا،

أتعجل الكتابة إليك فور وصول خطابك؛ لأقول لك إنه وقع مني موقع الدهشة الشديدة.. فلا شك أن بيكوف قد سلك المسلك الذي يقتضيه الشرف، ولكن هل كان ينبغي أن تقبلي الزواج منه بهذه السرعة، ولا أقول هذه اللهفة؟

ولا شك عندي أيضًا أن بيكوف يريد بك الخير، وأنه سيكون رفيقًا بك، وإنك ستسعدين يا يمامتي وملاكي، بما يتهيأ لك من اليسر والرفاهة وخفض العيش.

ولكن فيمَ هذه العجلة يا عزيزتي؟ ألأن مشاغله تقتضيه التعجيل بالرحيل؟

وأن...! فليس في العجلة خير؛ لأنها من حبائل الشيطان.

عفوًا! رأسي يموج كخلية من النحل، فقد وارينا جورشكوف التراب صباح اليوم... ونالني من ذلك نصب وكمد شديدان.. فلا أدري ماذا أرى.. أو ماذا أقول لك في هذا الأمر الخطير؟

وأنا يا يمامتي، ألم تفكري فيما يصيبني من فراقك ورحيلك

عني؟ ألست جديرًا بجانب من تفكيرك يا أختي وملاكي ونور أيامي؟

الأمر لله، ولك يا ڤارينكا!

ستتزوجين إذَنْ عما قريب.. وسيلزمك ولا بد أن تشتري أثوابًا وأحذية وجوارب، وما إلى ذلك.. إني أعرف محلًّا يبيع أحذية للسيدات في غاية الرشاقة، كنت أشتهي أن أشتري لك منه حذاء.. فأوصيك به يا ڤارينكا.. إنه في شارع «جوروخوفايا» العظيم.. الذي رأيت فيه ذات ليلة عربات الأميرات والأمراء.. تمنيت أن أراك في مثل عزهن السابغ!

ولكن كلا! هذا محال! محال أن ترحلي عني هكذا سريعًا، وقد أشرقت أنوار اليسر في حياتي بعد عسر طويل.

تذكري على الأقل أنه يلزمك شراء كثير وكثير جدًّا من الأشياء، فلا بد من بعض الوقت نقضيه معًا في تجهيز هذه العروض وانتقائها.

وهل تثقين بصدق فراسة فيدورا حين قالت لك إنك ستسعدين في حياتك الجديدة مع هذا الرجل؟

لقد رأيته خارجًا من لدنك، وهو فيما أرى رجل ذو مهابة.. بل إن مهابته زائدة على الحد اللائق.

هل ستذهبين الليلة إلى صلاة العشاء؟ سأذهب أنا على أمل رؤيتك هناك، فأرجوك أن تذهبي أنت أيضًا.

لقد صدق بيكوف حين قال إنك فتاة طاهرة ذكية الفؤاد، سرية النفس، راجحة العقل.. ولكني أرى أنه كان خيرًا له لو تزوج صاحبته الثرية ذات التجارة الواسعة في موسكو، فهي أقرب إلى موافقته.

سأنتهز فرصة الظلام لأزورك ساعة قصيرة، لا بد لي من حديث معك يا أختاه.. فانتظري قدومي.

مقار ديوفشكين

٢٧ سبتمبر

صديقي العزيز،

يصر بيكوف على أن أتزود بستة وثلاثين قميصًا من الحرير الهولندي، لا تنقص قميصًا! فينبغي أن تبحث لي عن قطعتين من ذلك الحرير، تصلح كل منهما لاثني عشر قميصًا أخرى غير تلك التي اشتريتها أمس.. وأرجوك أن تسرع في الحصول عليها؛ لأن الوقت قد أزف! فسيتم الزفاف بعد خمسة أيام، وسنرحل في اليوم التالي.

والحق أن هذه العجلة قد أضنتني، حتى لأوشك أن أسقط إعياءً، لولا ما أمامي من الأعمال الكثيرة.. وتراودني نفسي على الرجوع في الزواج، وبهذه المناسبة تنقصني كمية من المخرمات (الدانتيلا) لملابسي الداخلية، فلا تنس أن تشتري جانبًا منها مع الحرير الهولندي.

أشعر بالبرد في هذا المسكن الجديد، وأما عمة بيكوف العجوز فامرأةٌ لا تطاق، وكل شيء هنا مختل النظام، والخدم على كثرتهم مهملون، وكثيرًا ما يتغيبون دفعة واحدة، فتضطر «فيدورا» إلى القيام على خدمتنا بمفردها.. ولهذا يحيرني كيف أبعث إليك بهذه السطور، وأحسب البريد خير وسيلة في الإمكان.

كدت أنسى أهم ما في الخطاب.. مر بمحل الطرزي، وأوصه أن يجعل الطرز نقشًا بارزًا في جميع القمصان؛ لأن بيكوف يصر على أن تكون ملابسي أبهى وأغلى ما تلبسه السيدات في الناحية بأسرها.

لا تنس شيئًا من هذه التوصيات يا صديقي، وأرجو ألا تضيق بكثرة المهام التي أستأديك إياها كل يوم.. فما حيلتي؟ الوقت ضيق، ولا بد من إتمام الجهاز في بضعة أيام، وكلما ظننت أنني انتهيت، تذكرت أشياء كنت قد غفلت عنها.

متاعب جمةٌ، وأما العاقبة فعلمها عند الله، ولا أحاول استكناهها من بين أستار الغيب.. فليكن يا صاحبي ما يكون.

بربارا

* * *

ثم ماذا

٢٧ سبتمبر

عزيزتي السيدة بربارا،

لقد قمت بجميع ما أمرتني به بكل دقة وأمانة.. وقد فوت هذا عليَّ موعد الديوان، ولكن لا بأس، ما دام في ذلك راحة لك من بعض ما يشغل بالك في هذه الأيام الحافلة بالمهام.

وثقي أني على تمام الاستعداد للقيام بكل ما تطلبين، فلا تتحرجي من تكليفي بشيء، ولو اقتضاني أن أذرع المدينة من أقصاها إلى أقصاها.

تقولين إنك تتوجسين من المستقبل، ولا تحاولين معرفة ما يخبئ لك.. ونصيحتي إليك ألا تدعي التشاؤم ينفذ إلى قلبك، واطمئني إلى أن الله سيهيئ لك كل خير في حياتك الجديدة، فلا تقلقي.

كم أود أن أزورك في مسكنك الجديد. بل إني حاولت ذلك مرارًا، وبلغت في مرتين منهما بالأمس باب دارك، ولكني رددت نفسي عن الدخول في آخر لحظة؛ لأن هذا السيد بيكوف يبدو لي خشن الملمس!

مقار ديوفشكين

٢٨ سبتمبر

عزيزي السيد مقار،

أرجو أن تذهب إلى محل الجوهري، وقل له إنني عدلت عن صنع القرط المرصع بالياقوت واللؤلؤ، فالسيد بيكوف يراه غالي الثامن وأعلى قيمة وأكثر بذخًا مما ينبغي لنا.

ولو رأيت غضبته أمس لهذا السرف الذي يرميني به، فقد اتهمني جهرة بالتآمر على إفلاسه.

ثم انثنى بعد ذلك يلوم نفسه على التورط في هذا الزواج، غير مقدر أنه فتح لماله بالوعة لا تعرف الشبع.

وقد حفزه هذا الغضب على إلغاء كل ما كنا قد قررناه لحفلة الزفاف.. فلن يدعو أحدًا، ولن يقيم مأدبة ولا حفلًا راقصًا، وما هو إلا أن يعقد العقد، حتى نرحل من فورنا إلى الريف.

هكذا يا صاحبي بات بيكوف يخاطبني خطاب السيد الآمر الناهي، ولا حول لي معه ولا طول.

ولعله نسي أنني لم أطلب شيئًا من هذا الجهاز المترف، ولم أقترح حفلًا راقصًا ولا مأدبة عشاء، فما أزهدني في ذلك كله.. وإنه هو الذي اقترح، وهو الذي استرد ما منح.

ولكني لا أجسر على تذكيره أو مراجعته إذا غضب، فهو رجل عنيف.

ترى كيف ستكون حياتي معه؟

بربارا

٢٨ سبتمبر

يمامتي بربارا،

لقد أبلغت الجوهري ما طلبت لي أن أسوقه إليه من القول.

وأما أنا يا يمامتي فمريض لا قدرة لي منذ عدت إلى البيت على مغادرة الفراش. وشد ما يسوؤني هذا يا أختاه أن ألزم فراشي في أشد أوقاتك حاجة إلى خدماتي.

من ذا الذي يقضي لك حوائجك وأنا طريح الفراش؟

أشعر بثقل في أطرافي، وتصلُّب في أوصالي وأصالبي، وتداع في قوتي، وما أظنه إلا بردًا خبيثًا مما يلم بي أحيانًا.

كنت أود أن أسترسل في الكتابة، ولكني لا أستطيع.

مقار ديوفشكين

٢٩ سبتمبر

بربارا، يا صديقتي العزيزة،

لقيت اليوم فيدورا، وعلمت منها أن زواجك سيعقد غدًا، وأنك سترحلين بعد غد مع بيكوف، وأنه قد أعد العدة منذ اليوم لتلك الرحلة، فاشترى جيادًا قوية وعربة فاخرة.

وقد راجعت «فواتير» المشتريات، فوجدتها صحيحة، ولكنها باهظة الأرقام. إن هذا لا يبرر غضب بيكوف الذي صبه على رأسك. فما ذنبك أنت وهو الذي أصر على شراء كل هذه الكماليات؟

وفقك الله يا يمامتي، وكتب لك السعادة.

وكنت أود الذهاب إلى الكنيسة لحضور العقد، لولا أن آلام المفاصل تقعد بي عن الحركة.

وسرني كثيرًا ما علمته من فيدورا عن سخائك وبرك بها، فهي تستحق كل خير، وسيجزيك الله عن هذا البر الكريم خير الجزاء.

في النفس أشياء كثيرة لا أدري كيف أسوقها إليك، وأولها هذه الرسائل التي عشنا بها، وسأعيش أنا بها على الدوام.. من سيتولى أمر نقلها فيما بيننا، وقد بعدت بك الدار وشط المزار؟

عندي كتاب من كتبك، أتوسل إليك ألا تستردديه.. وما بي من شوقٍ إلى القراءة كما تعلمين.. ولكن الشتاء يقترب، وليالي هذا الشتاء ستكون طويلة موحشة ثقيلة الوقع على نفسي، وأنا أنظر من

نافذتي فلا أرى النور يشرق لي من نافذتك.. أقصد أن هذا الكتاب قد يُذْهِب عني بعض ما سأجده من السأم في ليالي الشتاء المقبل.

أتدرين يا أختاه أنني فكرت في حلٍّ بديع لمسألة سكني؟ سأحل محلك وأشاطر فيدورا ذلك الطابق، وسأجعل مقامي في غرفتك، ولن أبدل من حالها شيئًا.. فقلبي لا يطاوعني على ترك فيدورا المسكينة فريسة للوحدة بعد رحيلك.

لقد دخلت حجرتك السابقة أمس، فرأيت كل شيء كما تركته: قطعًا من القماش متناثرة في كل مكان، وآلة الحياكة في موضعها، وسريرك الصغير يا يمامتي خلف الستار.. وورقة فيها سطر واحد:

عزيزي مقار ديوفشكين..

وليس فيها غير ذلك السطر شيء.. وأحسب طارئًا أزعجك عن إتمام ذلك الخطاب.

وداعًا يا يمامتي، ولا تبطئي في الرد على خطابي؛ لأن الانتظار أليم.

مقار ديوفشكين

* * *

الصرخة الأخيرة

٣٠ سبتمبر

صديقي العظيم،

قضى الله ولا راد لقضائه، ونفذ السهم وسبق السيف العذل! ذلك يا صاحبي كل ما أعرفه من أمري، أما ما سيكون، فأنا مفوضة أمري فيه لله، وهو وليي ونعم النصير.

سنرحل غدًا يا صاحبي، فهذا وداعي الأخير إليك يا خير البشر نفسًا وأذكاهم قلبًا.. ويا من إذا عددت نعمك عليَّ، وأياديك لا أحصيها.. فقد كنتَ أبي وقد يتمني الدهر.. وكنت أمي وقد سلبني القدر عطف الأم.

وأستحلفك بالله ألا تحزن لفراقي، وانشد راحة بدنك وقلبك ما استطعت، ولكن لا تنسني أيها الصديق الكريم.

أما أنت يا صاحبي فستكون شغلي الشاغل، أدعو لك الله إذا صليت، وأذكر بالخير عهدًا كان أشأم العهود لولا عطفك وبرك.

وإني موقنة يا مقار أن ما من إنسان أحبني في هذه الدنيا سواك.. فقد رأيتك تكترث لأيسر همومي، ولا ترى النور إلا في ابتسامة شفتي ووميض عيني.. وكانت عبارة واحدة أكتبها إليك تنسيك هموم الحياة، وتملأ بالغبطة جوانحك المطوية على النبل وحب الخير.

ترى كيف ستكون أيامك يا صديقي الكريم من بعدي؟ من سيسأل عن حالك إذا أصبحت أو أمسيت؟

لقد تركت جميع رسائلك في خوان فيدورا.. فخذها، واحتفظ بكل ما تجده في غرفتي.. ولا سيما الخطاب الذي بدأته إليك ولم أتمه. احتفظ به يا صديقي، لتتمه بعين خيالك كلما ذكرت ماضي أيامنا التي اصطلحت عليها الأحزان فلن تطفئ نور حبنا الطاهر.

وداعًا أبديًّا يا صديقي! لقد وددت أن أراك قبل رحيلي، وأن أقبلك أيها الأب والأخ والصديق.

ألا ما أكأب ساعة الوداع أيها الحبيب.. وما أثقلها على روحي المروعة لفراقك.

ها هو ذا بيكوف يناديني.. فمعذرةً ووداعًا!

صديقتك الباقية على حبك

بربارا

٣٠ سبتمبر

ڤارينكا، أختي ويمامتي ڤارينكا،

أخذوكِ مني يا يمامتي، ومضوا بك إلى حيث لا أراكِ، ولا يبلغ بي الركاب.. فليتهم نزعوا حشاشة روحي قبل أن ينتزعوكِ مني هذا الانتزاع الوجيع.. ولكنهم تركوا روحي للعذاب، ومضوا بك يا حبيبتي إلى حيث لا أقدر أنا أن أمضي.

لقد رأيت آثار الدموع على خطابك يا ملاكي.. فأنت إذَنْ تبكين.. أنت إذَنْ شقية بهذا السفر البعيد، فلماذا إذن رحلت يا ملاكي؟

لقد بكيت يا حبيبتي جزعًا لفراقي، وإشفاقًا على قلبي المدنف، فأنت إذَنْ تحبينني يا ڤارينكا.. فكيف إذَنْ تعيشين مع من لا تحبين؟ ومن تحبين يقاسي أهوال البعاد!

سيشقى قلبك الطاهر الغض بهذه الحياة التي تتخمها أغذية الجسد، وتنقصها أنسام الروح، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

سيأكل السأم فؤادك، وتضيق نفسك بهذه الوحشة، ولن تجدي في ذلك الفقر الروحي إلا الهم والكمد.

لماذا اخترت ذلك الطريق أيتها اليمامة؟ لماذا ارتضيت الوقوع في مخالب الصقر؟ لماذا آثرت القبول فجنيت على قلبك الجناية التي ليس مثلها جناية؟ فإنه لن ينتظرك في ذلك المكان الموحش

مصير سوى القبر البارد المظلم، ولن تجدي هناك من يبكي شبابك الغض؛ لأن بيكوف لديه من شواغل المال والصيد ما يشغله عن الحب والبكاء.

سحقًا لي وتعسًا! ما كان أغباني وأعماني! لماذا لم أحل دون هذا الزواج المشؤوم؟ كان ينبغي أن أقاومه بكل قواي.. ولكن سبق السيف العذل كما قلتِ.. ونفذ السهم وقضى الله ولا راد لقضائه.

كلا! بل يجب أن أرد ذلك القضاء، غدًا سأقوم من فراشي مهما كانت الحال، وسألقي بنفسي تحت عجلات العربة كي أحول دون رحيلك إلى ذلك البلد النازح.

سأجري وراء العربة، سأعدو خلفها طول الطريق إذا أبيت أن تأخذيني معكِ إلى هناك.. وسأظل أجري حتى تفارق روحي جسدي.

إلى من يا حياتي سأكتب بعد اليوم رسائل أشواقي وخواطري إذا جن الليل واجتواني الصديق؟

من سأناديها إذا حزبني الأمر «يا أختاه» فتطمئن روحي، وتتبدد وحشتي، ويطيب لي الرقاد.

أنتِ قاتلتي يا ڤارينكا بهذا الفراق ولا ريب! فلن يصمد قلبي لهذا البلاء المبرح، وقد كنت عاصمه قبل اليوم من القنوط والموت.

من أجلك يا يمامتي كنت أحيا.. فلماذا أعيش الآن؟ وقد كنت

لي الابنة والأخت والأم الرؤوم.

لا تسافري يا ڤارينكا، فالرحلة شاقة، وصحتك معتلة، والطقس رديءٌ.. ها هو ذا المطر ينهمر، فإياك أن ترحلي في هذا البرد الشديد.

رباه! لماذا لم يتزوج بيكوف صاحبته الثرية في موسكو فيتركك لي.. فأنا ليس لي في الدنيا سواك.. أنت نور أيامي، فإذا ذهب النور فكيف أبصر الطريق؟ وكيف أستطيع أن أعيش؟

أمصرةٌ أنت على الرحيل مع هذا السيد بيكوف؟

وا أسفاه!

اكتبي لي خطابًا آخر يا ڤارينكا، خطابًا واحدًا فقط.

رباه! كيف أصدق أن خطابها هذا هو الخطاب الأخير، وأن يومًا سيمر بي دون أن أرى روحها مسطورة أمامي على صفحات القرطاس؟

أهكذا انتهى كل شيء يا يمامتي وابنتي وأختي وملاكي؟!

ألا ما أهون الحياة!

* * *